الهروب إلى الماضي

رواية

د.شريف الأتربي

دار بيوند للنشر والتوزيع
٤ ش كمال حسين متفرع من ومبي الهرم
٠١٠٩٦٩٠٠٠٠٧
Beyond.dbh@gmail.com
جميع الأراء الواردة في هذا الكتاب تعبر عن رأي كاتبها .ولا تعبر بالضرورة عن رأي دار النشر

الكتاب: الهروب إلي الماضي

المؤلف: د.شريف الأتربي

الطبعة: الأولى

تصنيف الكتاب: رواية

تصميم الغلاف: محمد مجاهد

التدقيق اللغوي: فايز نصار

الإخراج الداخلي: صبرينة غلمي

رقم الإيداع: ٢٠١٨ / ٢١٤٧٣

الترقيم الدولي: ٠-٢٤-٦٦٤٥-٩٧٧-٩٧٨

دار (بيوند) للنشر والتوزيع

رئيس مجلس الإدارة — **محمد عز الدين**

المدير العام — **صبرينة غلمي**

+٢ ٠١٠٩٥٦٠٠٠٠٧

beyond.dbh@gmail.com

www.facebook.com/beyond.PDH

المقدمة

يعيش كثير منا أحداث متعددة ومختلفة حزينة كانت او سعيدة ولكنها غالبا ما تمر ويطويها الزمان وتصبح كأنها لم تحدث؛ ولكن هناك أحداث تؤثر في حاضر ومستقبل متذكرها فيظل متعلقا بها بل ويهرب إليها كلما فقد الأمل في حاضره ومستقبله فتختلط هذه الأحداث ليصبح صاحبها مشوها لا هو متأقلما مع حاضره ولا مستعدا لمستقبله ولا يستطيع أن يفارق ماضيه فيبدأ في الهروب إلى الماضي بحثا عن حاضر يمكن أن يتناغم معه أو مستقبل يمثله.

الهروب إلى الماضي ١

اصحى يا محمد أتأخرت على الشغل يلا بقى متتعبنيش معاك زي كل يوم يا بني قوم بقى أنا صحيت العيال ولبستهم وفطروا وراحوا المدرسة وأنت لسه نايم قوم يا أخي بقى

أنت مين ؟

أنا مين .بطل استهبال وقوم بلاش الحركات دي.

أنت مين؟ وبتعملي أيه هنا؟

يا نهار أسود بلاش غلاسة يا محمد على الصبح قوم الفطار جاهز.

بلاش أنت مين.

أنا أيه جابني هنا ؟أنا أمبارح كنت نايم في أوضتي في بيت أمي وأبويا، وكان حسن أخويا نايم في السرير اللي جنبي، وأيه اللي ملبسني اللبس ده؟ فين لبس المدرسة؟ أنا عندي امتحان E النهاردة .أنتوا عايزيني اسقط .أنتوا مين؟ والله لأقول لأمي وأبويا عليكم يا حرامية. أنتوا خطفتوني منهم ليه؟

حرام عليكم أنا بحبهم رجعوني لهم. رجعوني وأنا مش هأقول للبوليس حاجة بس رجعوني...

أبوك وأمك مين يا جدع أنت دول ماتوا من زمان وحسن هاجر لأمريكا .

يعني أيه ماتوا؟ يعني أيه؟ أنتي بتستهبلي. أنت مين أصلا ؟أنت من الحرامية. أنا عارفك شفتك قبل كده في الشارع عند البيت مش هسيبك

سيب رقبتي أنت هتموتني الحقوني يا ناس محمد اتجننن.

خبطات متسارعة على الباب افتحي يا وفاء افتحي يا مدام وفاء افتحي يا ففه.

جرت وفاء نحو الباب مسرعة وفتحته واستطاع الجيران الامساك بمحمد.

أنتم مين ياولاد الكلب؟ أنتوا بقية العصابة. أنا مبخفش أبويا علمني الرجولة وعدم الخوف. هأموتكم كلكم.

تجمع الجيران وأمسكوا بمحمد وقام الدكتور نبيل بإعطائه حقنة مهدئة وأشار على وفاء باستدعاء طبيب نفسي فورا، فحالة محمد حسب

التشخيص الأولي هي من حالات الاكتئاب الناتج عن ضغوط العمل وفي حال عدم علاجها مبكرا تصل في بعض الأحيان إلى الانتحار.

الهروب إلى الماضي ٢

حضر الطبيب النفسي إلى منزل محمد وتحدث مع زوجته وسألها هل هذه أول مرة يحدث له ذلك؟ فكان ردها أن له مدة يعيد عليهم ذكريات قديمة مرت به، ويحكيها كأنها تحدث له في نفس اللحظة، ولكنه لم يكن يغيب عن الوعي وكان يعرفني أنا والأولاد لكن اليوم لم يعرفني وكاد أن يقتلني.

انتظر الطبيب فترة حتى عاد محمد إلى الوعي وما لبث أن وقف أمام الجميع متسائلا عن سبب تواجد هؤلاء الناس في منزله فطلب منهم الطبيب الانصراف وأستأذن في الانفراد بمحمد.

وبعد المقدمة المعتادة بدأ في سؤاله عن صحته وعن حياته عامه ، وطلب منه أن يشاركه مشاكله وأحاسيسه.

بدأ محمد في سرد قصته قائلا:

أنا يا دكتور من مواليد جيل الستينيات، الجيل اللي تفتحت عينه على النكسة، على الانكسار، على الخوف على فقدان الأمل. الجيل اللي كان بينام بالليل مش خايف من صواريخ إسرائيل قد ما هو خايف من زوار

الليل، خايف على أبوه وأمه وأهله لحسن يروحوا وما يرجعوش تاني زي اللي راحوا.

احنا جيل شد الحزام على وسطه من يوم ما تخلق لحد دلوقت لدرجة إن الحزام بقى جزء من وسطه، جزء من كيانه. احنا جيل معرفناش معنى الترفيه ولا الضحك ولا الفرح. احنا جيل مكنش لازم يتولد. احنا جيل تم تدميره قبل ميلاده، فلا نحن بقينا على الملكية، ولا استفادنا من الجمهورية.

احنا جيل تم تشويه أفكاره وتسميم اتجاهاته لدرجة أنه حب وكره لأن السلطة كانت عايزه كده مش لأنه هو عايز كده. احنا جيل اتخطف من بطن أمه ليعيش مأساة مستمرة حتى الأن مأساة البحث عن الذات.

يا دكتور في بداية عمرنا سمعنا عن حرب اليمن وعرفنا بعد كده إننا دخلنا حرب ملناش فيها بس عشان نرضي غرور قادة ليس لهم من التاريخ غير ثورة غريبة .لأ هي مش ثورة هي حركة انقضاض على السلطة بفعل رضوخ الحاكم وكأن الملك أراد أن يتخلص مننا، وقيس على كده حرب الجزائر، والتدخل في تونس، والأغرب من ده كله انفصال السودان اللي كان الملك بتعنا بيزين تاجه باسمها ، ومع كل العنجهية اللي كانوا عليها العسكريين دول ممنوش تهجير الفلسطينيين ولا منعوا اليهود من

الاستيلاء على أراضيها، والغرب يا دكتور أننا أتولدنا مع ظهور أمريكا والاتحاد السوفيتي والحرب الباردة بينهم وكأننا مولدين عشان نشيل هم الدنيا مش همنا أحنا. ولم جينا نشوف خريطة العلم لقينا الإمبراطوريات الكبيرة اللي كانت موجودة زي انجلترا وفرنسا وألمانيا والمجر والنمسا واليابان اختفت أو ضعفت أو اتفككت زي ما أحنا اتفككنا بالظبط .

يا دكتور احنا جيل مسموم من يوم ما اتولد.

الهروب إلى الماضي ٣

توقف محمد عن الكلام فجأة وقام من على مقعده وخرج مسرعا من الغرفة ولم يتكلم مع أحد، نزل سلالم المنزل درجات درجات وكأنه طفلا يلعب، خرج يجري واختفى وسط الزحام. حاولت زوجته والطبيب والجيران اللحاق به ولكن سرعته فاقت كل شيء.

استمر محمد في ركضه ولا يعرف إلى أين هو ذاهب ولكنه فجأة وجد نفسه أمام سور مدرسته القديمة في حي الزمالك العريق، أخذ يدور حولها كأنه يطوف حول الكعبة ليتخلص من آثامه ويعود كيوم ولدته أمه، وحين حل به التعب استند إلى جذع شجرة كبيرة وضع هو وأصحابه بذرتها قبل أكثر من ٤٠ سنة وتعاهدوا أن تكون هي المكان الذي يفضي كل منهم بهمومه إليها.

غفى محمد فجأة وهو جالس، وإذا به يسمع صياح وبكاء وأطفال تظهر عند باب المدرسة ممسكين بيد أمهاتهم أو أباءهم أو كليهما، ركز بصره على واحد منهم فإذا به يرى نفسه ممسكا بيد أمه يرفض أن يتركها يبكي ويبكي وهي تحاول أن تهدئه وأن تعطيه حلوى الكراميل التي يحبها في التوفي، ولكنه يزداد في البكاء.

صافحت أمه معلمة الحضانة والتي بدورها اصطحبتها إلى داخل المدرسة حيث عرفتها على مديرة المدرسة والمشرفات الأخريات.

كان هذا العام هو الرابع على النكسة وهي كلمة ترددت كثيرا على مسامعه ولم يعرف لها معنى فقط كلما سأله أحد كم عمرك؟ أجاب ٤ قالوا له يعني مولود في النكسة.

سحبته أمه سحبا إلى داخل المدرسة فهو مرتبط بها ارتباطا وثيقا لا يتركها أينما ذهبت. وحين ولج إلى الحديقة وجد المراجيح والحصان الحديد والأولاد يلعبون ويمرحون بدون بكاء، فبدأ بسحب يديه من يد أمه وشاركهم اللعب حتى إذا ركب فوق مرجيحة التوازن نزلت عنها زميلته الجميلة ذات العيون الخضر فجأة فهوت به لأسفل بسرعة شديدة مرتطما بالرمال ليجد نفسه فجأة قد وقع من على الرصيف أمام مدرسته وشجت رأسه وسال منها بعض الدماء وغاب عن الوعي ولعلها هي المرة الأولى التي يحدث له ذلك ولكنها لن تكون الأخيرة.

الهروب إلى الماضي ٤

رفعته أمه من على الرمل ومسحت الدماء التي سالت على وجهه، وحين تجمع حوله الأولاد بكل حب وود أنساه ألم السقوط على الأرض.

انسحبت أمه بهدوء وتركته وحيدا وكانت قد أوصت أخوه حسن بالسؤال عليه من عن بعد، فقد كان حسن أكبر منه بثلاث سنوات وكان يعتبره كأنه ولده ويتعامل معه من هذا المنطلق، فقد كانت شخصية حسن دائما مختلفة عنه فهو منذ ولد وهو يعيش في شخصية أكبر من عمره الحقيقي حتى كانوا يلقبونه بالرجل الصغير.

اندمج محمد مع أقرانه، ومن ثم بدأ التعارف بينهم دون تكلف أو تكبر عانى منه بعد ذلك حين شب، وفي نهاية اليوم كانت حصيلته جرح في الرأس وأكثر من ٢٠ صاحب وصاحبة.

عاد محمد إلى منزلة في أتوبيس المدرسة والذي ضمه هو وأخوه وأبناء الجيران وأبناء عمومته ممن يسكنون جميعا في مربع سكني واحد.

صعد درجات السلم مسرعا كما تعود دائما وحين دق الباب بيديه كانت الخادمة هي من استقبلته فأمه الطبيبة لم تكن قد عادت بعد ولا أبوه

ووجد التلفاز يصدح بخطبة للسيد الرئيس المؤمن محمد أنور السادات وهو يتكلم عن أشياء غريبة عنه عن مراكز القوى والناصريين والإخوان وعن عام الحسم. لم يستوعب تفكيره المحدود كل هذه الكلمات، ولكنه تذكر كيف كانت أمه تطفأ الأنوار حين تستمع لصفارات الإنذار وتخفيه وأخوه أسفل السرير، فهم يسكنون بجوار مطار عسكري. وتذكر أن أحد أعمامه ممن كانوا في عهد الناصرية يهاب ويتقى شره قد تم حبسه وأصبح الحديث عنه متبدلا من التفاخر بقوته السياسية والحكومية إلى الدعاء بفك كربه.

واصل السيد الرئيس خطبته وهو لازال يستمع وكأن هناك كيمياء ربطت بينهما فقد أحب السادات ووجد في شخصيته شبه له، فهو وإن كان يظهر أمام الكل ضعيفا إلا أن ضربته موجعة ومؤلمة لا تجعل خصمة يستفيق منها مرة أخرى، وتذكر حين كانت تحدث مشادات بين الطلاب في المدرسة كيف كان يتقدم الجميع ، ورغم أنه لا يتمتع بجسم رياضي ولا قوة ملحوظة، إلا أن ضرباته الموجعة جعلت من يفكر في الخناق معه يفكر كثيرا قبل أن يبدأ.

عادت أمه من الخارج ووجدته يردد حديث الرئيس متسائلا عن عام الحسم، فروت له أمه حكاية النكسة وكيف استطاع فردا خرج من المجهول أن يثير ضجة في العالم كله، وكيف جعل الأعداء يتحالفون ضده، وكيف عاث أصحابه فسادا في البلاد تحت ذريعة التخلص من الملكية، وكيف أوهم الأمة كلها أنه يملك جيشا قادرا أن يلقي بإسرائيل في البحر، ليجد هذا الجيش نفسه في مواجهة عدو تم إعداده بمهارة لا بالكمانجة والزمارة، ليخوض حربا ألقت بأنوف العرب جميعهم في الأرض، وضاعت من بعدها فلسطين إلى الأبد فليس هناك صلاح الدين من جديد بل من ظهر هم مفسدو الدين الذين يقتلون شعوبهم ويدمرون بلدانهم بداعي الجهاد لتحرير فلسطين وهي منهم برأ.

بكى محمد حزنا ولا يعرف لما بكى ولكنه تخيل شكل الجنود وهم يفرون من الموت فرارا دون قتال، أنزوى في سريرة ونام ليلته ليفيق في منتصف الليل صائحا ألحقيني يا ماما الرصاص هيموتني أنا مليش دعوة أنا معملتش حاجة أنا كل ذنبي إني صدقت الكلام ومشفتش وأنا أحنا أقوى قوة في العالم ولكنها كانت قوة الحناجر لا قوة الخناجر.

الهروب من الماضي ٥

عاد محمد إلى منزله فاستقبلته زوجته وفاء وهي في حذر لا تعرف هل ترحب به أم تتجنبه وإذا به ينادي عليها وفاء تعالي، ليقول لها:

شوفي يا وفاء أنا مش مريض نفسي ولا مجنون أنا بس بحب أعيش لوحدي شوية، وبعدين بكون كويس، فالله يخليكي لو لقيتي مودي مش كويس بلاش تعكنني علي ولا تضغطي علي سيبيني في حالي وهتلاقيني بعد شوية رقت ورجعت زي زمان.

دق جرس الباب وإذا بصديق عمره عمر يدخل مسرعا نحو محمد متسائلا عما حدث؟

فرد محمد ووفاء في نفس الوقت:

مفيش حاجة هي شوية ضغوط.

طلب محمد من وفاء أنا تتركهما منفردين وبدأ محمد يحكي لعمر:

فاكر يا عمر لما كنا في المدرسة في الحضانة وكنت بتحب تلعب مع البنت دي اللي كان لون عنيها أخضر، فاكر أنا كان نفسي ألعب معاكم بس هي

مكنتش بتحبني ليه مش عارف، هي كانت فاكرني فلاح وهي غنية. أنا فعلا فلاح من الطين، بس عمري ما كنت بيئة بالعكس، أحنا ناس راحت أملاكهم تحت شعار مصر ملك لأبناءها، وفي الأخر كل الأرض بقت مباني لا مصر استفادت ولا الأرض فضلت، وكمان فاكر الولد اللي كان أبوه عضو في قيادة الثورة، كان بيخوف العيال وبيتعامل معاهم كأنه وزير الدخلية أو عضو القلم السياسي فيها والله يا عمر أنا كان نفسي اضربه وأقول له أنتم دمرتونا.

يلا أيام وعدت.

بتعمل أيه اليومين دول يا عمر؟

أبدا يا حمادة فتحت شركة مقاولات وشغال مع الجيش في مشروعات المدن السكنية والعاصمة الإدارية ووووو...

وطلقت مراتي وهتجوز واحدة من السوريات الموجودين في مصر.

طلقت حنان!

الله يخرب بيتك.

ده أبوها هو اللي عملك.

ما خلاص يا حمادة المعاش معدش بيفيد هو لبس الجلابية وقعد في البيت وفيتامين واو بتاعه خلص.

أه يا ندل !

يلا أمشي وخليني لوحدي. أمشي بسرعة أمشي يلا.....

ألحقي يا وفاء الحالة رجعت تاني.

ربنا يستر وميموتنيش المرة دي، المرة اللي فاتت خنقني الله أعلم هيعمل أيه النهاردة.....

الهروب إلى الماضي ٦

علمت وفاء أن حالة محمد تستوجب منها البعد عنه حين يكون مستغرقا في أحلام يقظته حتى لا يصيبها ضرر ولا تزداد حدة الحالة لديه، لذا حين خرج عمر لم تحاول أن تدخل الغرفة بل أنها قررت إلا تحتك به إلا عند طلبه فهي تعلم إن هو ناداها فهو في عالمه الحقيقي وان تلاشها فهو في عالمه الخاص.

بدأ محمد يسترجع ذكريات مرحلة الطفولة مرة أخرى وهنا غاص بكل أحاسيسه في فترة الحضانة، فبعد مرور عدة أسابيع ألف أصحابه وألفوه، وبدأ يستوعب العالم الجديد الذي انتقل إليه بكل جوارحه وبدأ، يسمع من بعض الأطفال حكايات عن أباءهم في براءة الأطفال. فبدأ يفطن إلى وجود مهن أخرى غير مهنة أبيه التاجر المعروف في أوساط تجارة السيارات في وسط البلد، فعرف أن هذا ولد طبيب مشهور، وهذا أبوه ضابط بالجيش، والأخر بالبوليس، بل أيضا هناك أمهات يعملن لم يكن كل هذا يشغل باله، فقد كان تفكيره منصبا في غدا ماذا سيحدث؟ ولعل هذا الشعور انتقل إليه نتيجة سماعة أمه وأبوه يرددان : يا ترى يا بكره مخبي لنا إليه؟ فمصر في هذه الفترة كانت على المحك فكل الأمور

معلقة حتى تحقيق النصر ورد الاعتبار ، وكل عام يمر يزداد الشعور بمرارة الهزيمة خاصة مع تجبر إسرائيل وتحشها في أراض العرب.

وحين سأل والدته أخبرته أن وضع الدولة غير مطمئن وأن الحرب حسب كلام الريس باتت قريبة وفي صباح يوم لم يكن أحد يتوقعه سمعوا صفارات الإنذار تدوي في جميع أرجاء مصر فأسرعوا جميعا في الدخول للمخابئ وللأسف في أثناء هذا التدافع في مدرسته سقط واحد منهم أسفل أرجل الجميع وهنا عرف لأول مرة معنى الموت، وكيف يمكن أن يختطف شخص ما كان قبل ثوان معدودة يعد من الأحياء.

الهروب إلى الماضي ٧

رفض محمد الذهاب للمدرسة مرة أخرى حزنا على زميله الذي راح ضحية إنذار الهجوم الإسرائيلي، وأيضا خوفا من الموت. وترسخت في عقيدته موقفين هو كرهه لإسرائيل وخوفه من الموت. وبعد أسبوع استطاعت أمه اقناعه بالذهاب للمدرسة وأوضحت له أن هذه هي الحياة فيها الخير والشر أيضا.

قام محمد من نومه بدون نداء وفاء عليه وارتدى ملابسه ذاهبا إلى عمله، حيث يعمل مهندسا للإنشاءات في واحدة من كبريات شركات المعمار في مصر بل وفي العالم العربي وإفريقيا.

دخل محمد مكتبه دون أن يلتفت إلى أي من زملاءه، وبعد قليل ناداه مدير القسم الذي يعمل فيه وسأله عن وضع العمل في أحد المشاريع التي تقوم الشركة بتنفيذها في المجتمعات العمرانية الجديدة، وبدون أي مقدمات بدأ محمد في مهاجمة المشروع.

يا ريس مشروع شباب أيه ده اللي الشقة فيه بنص مليون جنيه، يا ريس أنتم مش حاسين بالناس ولا أيه. الناس بتاكل من الزبالة وبتموت من التلوث أكثر من المرض. الناس بطلت تضحك ولا حتى بتبتسم حتى لو

ضحكت بتضحك على نفسها الناس بتموت بعض عشان جنيه، الناس بتحبس بعض على ١٠٠ و٢٠٠ جنيه ، ده في ناس بتبيع كلاويها علشان تجهز عيالها، لأ أقول الكبيرة، في ناس بتبيع نفسها عشان تهرب عيل ولا اتنين من عيالها لأوربا في مراكب الموت، بيحطوا عيالهم في مركب وهمه مش عارفين هيوصلوا ولا لأ هيعيشوا ولا هيموتوا ، المهم يهربوا من البلد اللي مش عايزاهم يعيشوا فيها، وتيجي أنت تقول لي نص مليون جنيه ياخي أحا.....

أنت بتقول أيه يا مجنون أنت.

أهدا شوية هتودينا في داهية الله يخرب بيتك الحيطان لها ودان وبكره يطلعوا لك السي دي بتاعك ويخدوني معاك يا عم أحا أنت.....

الهروب إلى الماضي ٨

اصطحب المدير محمد من مكتبه وهبطا مسرعين إلى الشارع. وهنا بدأ المدير حديثه لمحمد : شوف يا محمد أحنا أصحاب من زمان بدأنا في الشركة سوى واشتغلنا في مواقع كثيرة سوا حتى الصياعة صعناها سوى، يمكن أن أترقيت وبقيت مدير بس هو ده نظام الأقدمية في مصر وأنت راح يجيلك الدور بإذن الله ومن واجبك علي كصديق أني أنصحك أنت لازم تنتبه لنفسك شوية مش معقول كده أنت حالتك النفسية بقت في الحضيض.

قاطعه محمد قائلا : يا سيدي شكرا على الصداقة والنصيحة. بس أنت مش حاسس باللي أنا حاسس بيه. يا صديقي أن كل حياتي بترجع لورا مش بتتقدم. الدنيا بقت ملخبطة معايا مش عارف في أي زمن أنا عايش ولا يمكن مت. أنا كبير ولا صغير. أنا شاب مراهق ولا طفل ولا عجوز. أنا مين مش عارف. أن بقعد أفكر في حاجات مر عليها أكثر من ٤٠ سنة أو أكثر. شوف يا سيدي أحكيلك في سنة ١٩٧٢ كنت في أولى ابتدائي وكنت زي ما انت عارف في مدرستنا اللي في الزمالك ولأول مرة أعرف يعني أيه مرارة الحرمان لما شفت الدادة سنية وهي بتدور في الأدراج على

سندوتشات أو بواقي أكل سبناه في الأدراج سألتها بكل براءة أنت بتعملي أيه يا داده ، ردت : بدور على أكل لعيالي ،قلت لها أشتري أكل ، ردت : منين يا بني ده اللي جاي أقل من اللي رايح. مفهمتش الجملة بس سألت أمي وردت علي وقالت: مسكينة. الموقف اللي بحكيهولك ده بيمر على كل يوم لدرجة أني ساعات بقول للست اللي بتدور في الزبالة يا ست سنية تبصلي بقرف وتقول لي أنت مجنون يا عم الحاج أنت ولا أيه سنية مين أنت سكران ولا شارب حاجة. ساعتها بحس أني ضايع ومش عارف أنا فين كل اللي بتمناه أني أروح البيت وأشوف أمي وأبويا وأخويا ألاقي عفاف تقول لي ماتوا وحسن هاجر همه صحيح ماتوا وحسن هاجر ولا أنا بتهيأ لي يا صاحبي.

لأ ده أنت حالتك صعبة أوي لازم تروح لدكتور نفسي.

دكتور نفسي أيه ده أنا أعقل منك ومن أبوك الله يرحمه، أحسن تكون فاكرني زمهرت زي ابوك اللي كان بتوه في الشارع ونقعد ندور عليه باليومين، لا يا حلو لا يا جميل أنا لسه بعقلي أنتم اللي مجانين. بقولك أيه غور بقى من وشي أحسن أديك واحدة من بتوع زمان أكومك في الأرض.

الهروب إلى الماضي ٩

عاد محمد إلى عام١٩٧٢مرة أخرى ليتذكر ما حدث لأمه خلال هذا العام، ففي صبيحة يوم دراسي عادي فوجئ محمد بوالدته تودعه وتوصيه بالعناية بأخوه والاهتمام بمذاكرته. لم يستوعب محمد هذه المحادثة ولكنه احتضنها وبكى ومن ثم حمل شنطته ونزل إلى الشارع ليلحق بأتوبيس المدرسة.

وعند عودته جرى مسرعا ليبحث عن أمه في داخل المنزل ولكنه لم يجدها ووجد جدته لأبيه تقف في المطبخ. وبعد السلام عليها سألها عن أمه فكانت إجابتها جافة كما كانت العلاقة بينها وبين أمه فقالت : أمك فى المستشفى بتعمل عملية والله وحده عالم هترجع أمتى. غير هدومك وتعالى اتغدى قبل ما أبوك يرجع من المعرض .

لم يستوعب محمد قولها وصرخ فيها : ماما فين أنت بتكدبي علي، أنت ما بتحبهاش، أنا عارف بس أنت مش هتكوني مكانها، ماما فين قولي لي أنتم عملتم فيها أيه. وأخذ ينادي أخوه الذي كان يتناول الغداء بلا أي تأثر.

تقوقع محمد في سريره وظل يبكي وحين جاء أبوه سردت جدته له ما حدث بينهما فما كان من أبوه إلا أن ناداه وصرخ فيه قائلا: أمك بتعمل عملية ولسه عايشة لو ماتت هنقولك روح يلا كل الأكل اللي ستك عملته وإلا هخلي الحزام يأكلك.

جرى محمد مسرعا فهو يعرف أبيه في حالات الغضب لا يتوانى عن استخدام العنف وقد ناله منه الكثير زمان خاصة أنه كان فتى شقيا جدا وكان الجيران كثيروا الشكوى منه ومن الحركات التي يقوم بها، فأخذ طبق طعامه واختفى عن الأنظار.

الهروب إلي الماضي ١٠

استمرت معاناة محمد مع جدته لأكثر من أسبوع وهو لا يدري أي شيء عن أمه بل لعله عرف موعد حرب الكرامة ولم يستطع أن يعرف أين أمه أو ماذا حدث لها فأنكفأ على نفسه وتحاشى التواصل مع من بالمنزل من أخوه أو أقاربه بل زاده حزنا حين سمع جدته تشير على أبيه أن يتزوج من امرأة أخرى فأمه لن تستطيع الحمل مرة أخرى فقد تم استئصال رحمها ولم يتوان أبوه عن ذلك فسرعان ما كانت طنط منى هي الزوجة الثانية له، و لمنى هذه قصة عجيبة حسب ما روتها له أمه، فهي مطلقة ولها بنت وكان أبوها صديق لأبيه وفي إحدى الزيارات لصديقه صلاح في معرضه سأله عن الأنسة الموجودة معه فأبلغه بأنها بنته فلم يصدق الحج صلاح أن منى كبرت بسرعة وأصبحت امرأة ناضجة، وحين أبلغه أنها طلقت كان رده : مين الحمار اللي يطلق القمر ده. تجوزها لي؟ كان سؤال الحج صلاح لصديقه عبثيا ولكن البنت ووالدها تشبثا بطوق النجاة، تشبثا بالحج صلاح وأمواله لتخرجهم من دائرة الطبقة المتوسطة إلى طبقة الأغنياء. وأصبحت طنط منى زوجة لأبيه واستمرت الزيجة مدة عشر سنوات وانتهت كما بدأت بطلاق وأطفال جدد انضموا إلى أختهم الأولى سحر.

وعادت أمه وعرفت ما حدث ولكنها لم تتألم كثيرا من ذلك بل لعل ألم العملية كان أشد وقعا عليها من قسوة زوجها وأمه، ومع مرور الزمان عرف محمد أن زواج أمه من أبيه لم يكن عن حب بل هو هروب منها من زحام بيت أمها بمن فيه.

عادت أمه للبيت وبالتالي غادره كل من كان فيه حتى جدته عادت إلى قريتها اقترب من أمه واحتضنها ومسح بيديه الصغيرتين دموع عينيها التي يتذكر أنها لم تتوقف حتى فارقت الحياة.

محمد

محمد

محمد

عايزه أيه من الزفت؟ الله يخرب بيتك وبيت اليوم اللي اتجوزتك فيه عايزه أيه أنا مش قلت لك لما تلاقيني لوحدي سيبيني في حالي.

وأنا أعمل أيه ولادك عايزين فلوس. وأبنك الكبير بيقول إن الدكتور في الجامعة طالب منهم فلوس علشان يعمل لهم مراجعات.

يعني عايز كام يعني؟

١٠٠٠ جنيه

١٠٠٠ جنيه يا وليه يا مجنونة أنتي، دي الألف جنيه دي أنا اتجوزتك بيها.

الله يخرب بيت التعليم واللي اخترع التعليم ومجانية التعليم اللي دوشونا عليها في ثورتهم الميمونة، فقد صدح القائد الفذ في إحدى خطبه أن التعليم لابد أن يكون لكل أبناء الشعب وليس حكرا على طبقة معينة منه، طب يا عم الفذ أنت لما جيت تتعلم حد قال لك حاجة أديك أتعلمت وعلمت علينا ومجانيتك دي خلت كل الناس جهلة محدش بيتعلم حاجة كله في الكلتش.

قال مجانية قال.

دي مهلبية

ترد وفاء

بتقول حاجة يا محمد

وأنت أيه دخل أمك فيا غوري يا شيخه دي بقت عيشة تطهق.....

الهروب إلى الماضي ١١

ارتدى محمد ملابسه ونزل من المنزل هربا من واقعه ومن زوجته بل من حياته كلها، كان يجد ملاذا له في قهوة صغيرة في إحدى مناطق الهرم حيث يجلس بعض الأصحاب القدامى أو بعض زوار القهوة الدائمين. وما أن جلس إلا وجاءه أحدهم وجلس معه ودار بينهما حديثا شمل جميع مناشط الحياة حتى وصلا إلى موضوع الإرهاب الذي تحاربه الدولة في سيناء هنا انتفض محمد وتغيرت ملامحه وصوته وبدأ في حديث طويل جدا مع مجالسه:

إرهاب أيه يا عم اللي أنت جاي تقول عليه. يا عمي دول شوية عيال خرعه لو كنت عايز تشوف الإرهاب بجد كنت تعال معانا لما كنت في الجيش في الثمانينات كنا بنحارب أشباح ناس منعرفهاش ناس مش مننا طلعوا لنا فجأة زي ما تكون الكواكب التانية طردتهم فملقوش مكان غير مصر.

يا عمي الإرهاب في الثمانينات كان في مصر كلها مصر كانت هتتخطف مننا .احنا كنا بنروح المأمورية ومش عارفين رايحين فين. ولا في جوالات، ولا طائرات بدون طيار ولا ولا ولا..... من الأجهزة اللي انت عارفها دلوقت.

في مرة من المرات طلبوا منا الاستعداد عشان هنخرج في مأمورية وكنا حوالي(١٥) واحد ومعانا ضابط لسه ملازم أو ملازم أول مش فاكر، وكانت المأمورية نروح نحرر زملاء لينا اتخطفوا في سينا. وحسب المعلومات اللي وصلت أنهم محبوسين في بيت مهجور مطرف في بير عبد، ورحنا المكان حسب الخريطة والتوجيهات، وإنك تسمع صوت يا راجل مفيش غير الصمت كأنك في مقبرة، وجه الضابط وأمرنا بتكوين تشكيل هجومي أنا من حظي كنت أخر واحد بأمن التشكيل من الخلف، ووصلوا الرجالة عند الباب وعينك ما تشوف الا النور هم فتحوا الباب إلا وضرب النار اشتغل من كل ناحية اتاري الواد ابن الكلب اللي مبلغ عن مكان المخطوفين كان بيعنا للكلاب الإنجاس بتوع الإرهاب. المهم يا عمي صفينا العيال وبنلم بعضينا بنشوف فين القائد لقيناه يا حبة عيني متقطع من الرصاص اللي جه في جسمه هو اللي طلب يكون في أول الهجوم عشان يحمي الرجالة وهو حماهم فعلا بس بروحه وجسمه أنا شفت كده طلعت سلاحي وكملت ضرب نار في العيال وبعدين شلت القائد وحطيته معنا في العربية ورجعنا المعسكر وبلغنا تمام.

تخيل يا صاحبي القيادة تطلب مني أيه؟ تطلب أني ابلغ أهله أروح لأمه وأقول لها ابنك مات. قتلوه قدام عنيننا. أبنك فدانا بروحه أزاي أقول

الكلام ده مش عارف. المهم رحت و معايا الوفد ومجرد ما شافتنا أمه سألت ابني فين؟ لسه بمهد لها أنه استشهد. لقيتها زغرطت وقالت ابني شهيد يا ناس ابني مات عشان مصر أبني هيشفعلي أنا وأبوه عند ربنا واغمى عليها .

ورجعنا الوحدة وكأننا ما رجعنا، رجعنا وقررنا ننتقم من الكلاب اللي بترعى في جتة مصر وفعلا سلمنا الراية للي ورانا وسينا فلة منورة.

الهروب إلى الماضي ١٢

ورغم أن الحديث بينهما كان قد قارب على النهاية إلا أن محمد انتابته موجة من الغضب الشديد حين تذكر قائده الذي استشهد حتى أنه ثار على مجالسه كأنه هو من قتل قائده واستطاع الزبائن أن يفكوه من بين يديه بعد أن كاد يزهق روحه.

خرج محمد من القهوة لا يعرف أن يذهب فقد كان فكره مشوشا بين حاضر رافضه ومستقبل مستثقله وماض قد يجد فيه بعض راحته.

انطلق محمد بسيارته حتى وصل إلى بيت أمه الذي طالته يد التدمير فتم هدمه بعد أن باعه الورثة وهو منهم وبنيت مكانه عمارة شاهقة. ركن محمد سيارته بالقرب من العمارة ونزل من السيارة ليدور في الحي الذي ولد ونشأ وعاش فيه مراحل حياته المختلفة.

أخذ محمد يشير بيديه كدليل سياحي للمنطقة : هنا كانت عائلة الدكروري وأولادهم، وهنا عائلة البغدادي وأولادهم، وهنا عائلة سكر وأولادهم. أين هؤلاء الناس؟ أين ذهبوا؟ لماذا اختفوا من حياته وهم جزء كبير منها؟

لمح محمد حارس إحدى الفلل التي كانت قريبة من بيتهم وعرفه أنه حمدان نعم لازال حيا رغم تقدمه في السن.

عم حمدان ، عم حمدان.

خير: مين أنت كمان؟

أنت لسه أخلاقك زفت زي زمان، يا عم ده أنت كبرت وخلاص هتودع.

أنت مين يا له؟ أنا فاكر شكلك أنت حرامي.

يخرب بيت دماغك أنت لسه بتشرب الحشيش الوسخ بتاعك ده.

أه عرفتك أنت محمد أبن الحج صلاح بتاع العربيات .

تمام هو أنا ده.

وايه اللي جابك هنا يا له؟ هو أنتم مش بعتم الفيلا وقبضتم الفلوس. ده أنا حتى لي فلوس عمولة أني جبت لكم المشتري وضحكتم علي.

أنت لسه فاكر يا راجل ده كلام مر عليه يجي ٢٥ سنة.

أه . ما هو أنا منساش حقي . فين حقي يا له ولا ألم عليك الشارع.

يا راجل أهدى بقى خلينا نتكلم شوية.

عايز أيه؟

أخبارك وأخبار عيالك أيه؟

أنا الحمد لله. وعيالي اتشتتوا. واحد دخل السجن من أيام الثورة الغبرة، باع نفسه للعيال الاخوان، كانوا بيدولوا فلوس عشان يحدف طوب وأزايز ملتوف على العساكر اللي واقفه في الميدان.

والثاني هاجر بمركب من المراكب الغبره دي، ولحد دلوقتي معرفش هو حي ولا ميت.

واللي باقي معايا منى بتحرس العمارة معايا.

وأنت عملت ايه يا له؟

ولا حاجة. معملتش حاجة. لسه عايش معاكم هنا.

عايش فين يا له أنت مشيت من هنا من زمان. أنت شارب حاجة أنت كمان ولا أيه؟

أه معلش يا حمدان الموضوع صعب شوية مش راح تفهمه طول عمرك مخك مصدي ومقفل.

سيبك مني بقى وكلمني بقى عن الجيران.

الهروب إلى الماضي ١٣

الجيران. معدش في جيران يا باش مهندس كلهم راحوا ويدوب لو حد جه زيك كده وسأل عن حد وسلم علي.

أوجز يا جدع راحوا فين الجيران.

شوف يا سيدي الحج طلعت فاكره؟

آه فاكره. عضو مجلس الشعب السابق الإخوانجي.

آه يا سيدي. أطس حكم بالمؤبد في قضية كده من قضايا الزفت الإخوان، وولاده هاجروا تركيا وسابوه بعد ما باعوا كل حاجه.

وكمان الأستاذ نسيم اللي كان شغال في الخارجية مات الله يقدس روحه وولاده مشيوا وخلوا أمهم تريزا في الشقة لوحدها راحت جايبه كلب ومربياه وكل يوم تنزل تمشيه بعد العصاري وترجع تاني.

آمال أنت أخبارك أيه؟

أنا زي ما أنت شايف عايش ومش عايش شوية أشوفك وشوية أشوف وفاء مراتي مبقتش عارف أنا فين؟

ياه يا حماده؟

حلوه حماده دي. من زمان مسمعتهاش.

أمال أخبار باقي عصابتك الصيع أيه؟

بخير يا حمدان. كلهم بخير ولله الحمد منهم اللي سافر يشتغل في الخليج ومنهم زي ما أنت عارف ساب المنطقة وراح سكن في التجمعات الجديدة ما بين أكتوبر والتجمع والشروق بس بنتجمع مرة لا مرتين في السنة وخاصة فطار رمضان.

فاكر فطار رمضان يا حمدان فاكر لمتنا ولما كانت أمهاتنا بتبعتنا للجيران بأحلى أكل وكنت أنت يا وحش أكتر واحد مستفيد كل يوم تاكل ما لذ وطاب.

أنت هتنق علينا ولا أيه يا حماده. المهم شوف لنا كده حتة بمية ولا متين معاك ده أنا مأشفر.

طول عمرك طماع يا راجل أنت خد لك حتة بخمسين وأحمد ربنا.

ودي تجيب أيه يا حماده لا سجاير ولا أكل ولا حتى حشيش. خليها لك يا عم أنت شكلك عايز مساعدة.

هههه. ماشي يا عم هات الخمسين وخد الحتة أم متين دي.

أيوه كده يا حماده يا أشطة رجعتنا لزمان لما كنت تضرب أنت وصحابك الصواريخ في أوضتي و.....

بس يا جدع أنت هتفضحنا ولا أيه يلا سلام أشوفك تاني.

سلم لي على أمك وأبوك وأخوك حسن.

أسلم لك على مين؟

لأ خلاص متسلمش على حد أنا هأروح لهم قريب وأبقى أسلم لك عليهم.

يخرب بيت أم الحشيش اللي بتتعاطه أنت كمان.

الهروب إلى الماضي ١٤

وفاء .

وفاء .أصحي يا وفاء.

عايز أيه يا محمد؟ بتصحيني في نص الليل ليه؟

عبرنا يا وفاء عبرنا.

يا ليله سوده عبرتم فين يا جدع أنت. أنت بتهلوس ولا أيه؟ لا والله عبرنا، انتصرنا وهدينا حايط الزفت بارليف وربنا نصرنا على الكلاب اليهود ولسه المعركة مولعة أنا سامع أبويا بيحكي لأمي وبيقول لها أن الجيش هيدمر إسرائيل وهيمحيها من على ضهر الأرض.

يا سلام هيمحيها من على ضهر الأرض أيه يا خويا وسفيرهم مرمي عندنا هنا في التجمع بعد ما غار من على النيل.

تصدقي كمان بيقول لها أن سوريا راح تحرر الجولان وترجع أرضها اللي راحت منها بعد النكسة الغبره.

يا جدع فوق. ولا الجولان اتحررت ولا إسرائيل اتمحت ولا أمك ولا أبوك موجودين.

يا سلام على الرجولة الملك فيصل بتاع السعودية بيهدد الأمريكان لو حد تدخل هيقطع عنهم البترول. كل الدول العربية واقفه مع بعض واقفة رجل واحد .ربنا هينصرنا بإذن الله وهنرجع أراضينا.

ما هي رجعت وسيبناها تاني سيبنا تيران وصنافير وخدنا حلايب وشلاتين ارجع انت بقى وبطل جنان.

والله ما حد مجنون غيرك. أنت ليه مش فرحانه عشان عبرنا وأنتصرنا. أنت شكل اصل أمك صهيوني.

أمي. الله يرحمها. كانت معلماك الأدب.

أنت نمت ولا أيه؟ يارب ألطف بي بقى. الراجل أتجنن وناوي يجنني معاه.

محمد اصحى يلا عشان الشغل.

أديني صحيت أهوه جهزت الفطار.

أيوه جهزتي الفطار.

أيوه جاهز على السفره عندك بره بس خد بالك وأنت معدي لحسن يخبطك صاروخ ولا تنفجر فيك قنبلة.

بتقولي أيه يا مجنونة أنت؟

هي الحرب بتاعتك خلصت ولا لسه؟

يخرب بيت أم جنانك حرب أيه اللي أنت بتقولي عليها؟

شكلك شفتي حمدان أمبارح وضربتي لك معاه صاروخ.

حمدان مين يا ده؟

أقول لك ماشي صاروخ ، صاروخ . روح أفطر أنت وأنا هأعمل الشاي وأجيلك.

الهروب إلى الماضي ١٥

صباح الخير يا شباب أخباركم أيه؟

صباح الفل يا باشمهندس أخبارك أنت أيه؟

الحمد لله سمعتم أخر الأخبار.

خير يا هندسه؟

هيغيروا الوزارة.

ليه ؟

مش عارف والله بس هي كده عادتهم.

طب هيجيبوا مين؟

يجيبوا اللي يجبوه معدتش فارقه معانا ولا حتى معايا انا لوحدي من يوم حكم مبارك والواحد بطل يسأل جابوا ده ليه وشالوا ده ليه. اصبحنا كأننا ضيوف في بيت عند واحد عازمنا وبيقدم لنا الأكل اللي هو طابخه ولا بيسألنا نفسنا في أيه ولا رأيكم أيه هو كده ده حتى وصل الأمر لأنه ممكن يقول كلوا وأحمدوا ربكم أني بأكلكم هو أحنا وصلنا للمرحلة دي ليه؟

ليه بقينا حاسين إننا عالة على دولتنا؟

ليه خلونا نحس أن بلدنا ممكن تكون أحسن من غيرنا؟

وأحنا ذنبنا أيه أنتم اللي بتحكمونا وأنتم اللي وصلتونا لكده؟

يعني تخربوها وتفشلوها ودلوقتي بتحسبونا.

كنتم فين لما أتجمدنا في مكانا ٣٠ سنة، مفيش مشروع بيتم إلا بطلوع الروح، مفيش تنمية، مفيش خطة، كله ماشي بالسهلله، متعرفش أزاي لكن لأننا شعب طيب ربنا كان ساترها معنا، تقوموا تيجوا دلوقت وتحاسبونا على صبرنا يا أخي .....

يا عم شيل أيدك من على بقي هي الكلمة دي بقت عيب ولا حرام؟ الواحد بقى بيسمع كلام في الشارع أوسخ من كده. كل الكلام اللي عيال بيتكلموه مع بعض وسخ وسب دين وألفاظ قذرة مين اللي عمل كده مش أنتم؟

أنتم اللي سمحتم للأفلام الواطية اللي بوظت عقول العيال والشباب أنها تتعرض في السينما والتلفزيون تحت زعم حرية الفكر، ولما يجي واحد يكتب ولا يعمل فيلم ينتقد الحكومة ولا الرئيس كأنه حرف في القرآن الكريم.

الله يخرب بيوتكم زهقوتنا في عيشتنا وحياتنا لما الواحد مبقاش عارف هو صاحي ولا نايم؟ حي ولا ميت؟

أنت فين يا مصر وحشتيني ؟

نفسي أحس أني مصري مش ضيف في بلدي.

جتكم القرف...

رايح فين ؟

وأنت مالك أنت. هو أنت وفاء مراتي أنت كمان!

الهروب إلى الماضي ١٦

يخرج محمد من الشركة ولا يعرف أين تلقي به الطريق فهو يريد أن يهرب من واقعه، وكلما عاد إلى ماضيه لم يجد فيه مبتغاه، إلا أن العودة إلى الماضي كانت تخفف بعض الضغوط النفسية التي تقع عليه، وكان هروبه يأتي فجأة فهو لا يخطط لذلك ولكنه يكتشف فجأة أنه في مكان غير المكان الذي كان يتذكره أخر مرة أو خارج حدود الزمان الذي كان فيه، وفي تلك المرة كانت الضغوط قد بلغت ذروتها معه ما بين وفاء والحكومة وفقدانه الاحساس بوجود والديه وهي ربما أحد أكبر الضغوط عليه نظرا لسفر أخيه الوحيد إلى الخارج.

قاد محمد سيارته إلى أطراف القاهرة حيث كان يحلو له الذهاب إلى منطقة حلوان وخاصة على طرف النهر ليجلس وحيدا يدخن سيجارته متأملا لون مياه النيل وسرعة جريانها ولا ينسى أن يحقد على الشعب والحكومة كلما شاهد نفايات أو قاذورات تجري مع تياره.

يطالع محمد في أحدى البنايات المقابلة ليشاهد أعلانا عن بيع شقة مساحة ١٧٤م وبأسعار زمان، يرن الرقم في ذاكرته أنها الفترة التي أعقبت حرب ١٩٧٣ حين كانت هذه المنطقة شبه خالية من السكان، كيف وصل

الإعمار إلى بناء مانع بين الناس وبين نهرهم الخالد؟ إنها إفرازات تلك الفترة التي أُطلق عليها فترة الانفتاح، وهي حسب فكره من أسوء الفترات التي مرت على مصر فقد غيرت تركيبة المجتمع المصري التي كان عليها بعد ثورة ١٩٥٢ حيث زادها سواء بصعود أرازل الناس وأشباه البشر إلى أعلى درجات الغنى الفاحش في مصر. فقد تسبب التحول من اشتراكية عبدالناصر إلى الليبرالية الغربية، بتبني سياسات الانفتاح الاقتصادي، وتحرير السوق، ورفع الدعم، وإقرار حزمة من القوانين الاقتصادية، إلى ظهور القطط السمان، وكانت هذه القطط أحد أهم أسباب انتفاضة ١٧ يناير ١٩٧٧.

يتذكر محمد هذه الفترة فقد كان حينها حول العشر سنوات، كما أنه يتذكر القبض على أحد أعمامه من قبل أمن الدولة تحت زعم مناصرته الشيوعيين في تحديهم للرئيس الملهم والمؤمن السادات، وإلقاءه في السجن لفترة طويلة اجتمع خلالها في منزلهم كبار رجال العائلة لمحاولة إخراج عمه من معتقله عن طريق الأقارب والمعارف وقد انتهت الاجتماعات بإفراج من الحكومة عنه بشرط عدم الدخول في هذا المعترك مرة أخرى.

كانت تلك الفترة ومعها أحداث ١٩٨٦ هما أكثر فترات وجد فيها الحكومة ضعيفة امام الشعب ففي ١٩٧٧ رفعت الدولة أسعار ٢٥ سلعة فخرج الشعب ضد الحكومة والتي حاولت استخدام قبضتها الحديدية ضد الشعب ولكن هذا الشعب إذا ثار لا أحد يعرف ماذا سيفعل.

خرجت المظاهرات من المناطق العمالية أولا وسرعان ما دبت النار في الهشيم فمع صبيحة يوم ١٨ يناير ١٩٧٧ كان الشعب بأكمله قد خرج ضد النظام وكالعادة يلجأ القادة العسكريون إلى حاميهم وهو الجيش، حيث يأمر السادات الجيش بالنزول للحفاظ على الدولة وممتلكاتها، وزادت أعمال التخريب، وكان ميدان التحرير وكعادته رمزا من رموز الثورات في مصر، فقد احتشد الألاف من المواطنين فيه وأخذوا يرددون الهتافات ضد الحكومة وضد الرئيس وضد منتفعي الانفتاح أو ما يطلق عليهم القطط السمان فيما أطلق عليها الرئيس انتفاضة الحرامية.

ولم تكن الطامة الكبرى في هذه المظاهرات التي انتهت مع يوم ١٩ يناير حين أعلنت الحكومة تراجعها عن رفع الأسعار ولكن الطامة الكبرى في حركة الاعتقالات التي أعقبت انتهاء المظاهرات وتخلي الرئيس عن ديموقراطيته المزعومة والعودة إلى القمع وعسكره الدولة كما كان في عهد عبد الناصر.

وقد روى له صديقه القديم ايمن ما حدث لأبيه وأمه وكانوا من المحسوبين على التيار الشيوعي، حين تم القبض عليهم وسجنهم في أحد المعتقلات الخاصة بأمن الدولة والحكم عليهم بالسجن لمدة ٣ سنوات بتهمة ترويج الاشاعات ومقاومة السلطات والعمل على قلب نظام الحكم حيث تم تعذيبهم خلال فترة الاعتقال وخلال فترة وجودهم في السجن بكافة اشكال التعذيب والتنكيل إلى جانب فصلهم من العمل مما دعاهم بعد الخروج بالهروب إلى ليبيا حيث استقبلهم القذافي وأمن لهم معيشتهم وظلوا هناك لفترة حتى اغتيل السادات.

وغيرها كثير من القصص التي حكيت له من معارفه أو أصدقائه عن هذه الفترة ولعل أبرز ما لفت أنتباهه في هذا الموضوع تذكره عوض وهو سمسار شقق كان يعمل في منطقتهم، لقد كان عوضا نموذجا صريحا وحقيقيا رأه بعينه يتحول من الفقر المدقع ومن الجري وراء السكان في الشارع لينظف سيارتهم أو ليحمل لهم أغراضهم إلى العمل كسمسار ثم فجأة أصبح من أصحاب العمارات والعقارات ورأس المال بل أنه وصل إلى مجلس الشعب ليجلس على كرسي ربما جلس عليه زعيم الأمة سعد زغلول سابقا، وحين حاول أن يسأل أباه عن عوض قال له: غسيل أمول، فتخيل في ذلك الوقت أن عوض يملك أموالا وقد قام بغسلها كما تغسل

أمه الثياب ولكن بعد فترة عرف أن عوض هو واجهة تبييض أموال لأشباح لم ولن يعرفها أحد فهي شبكة من الفساد تطال كل أركان الدولة.

وتذكر أحداث ١٩٨٦ وهي مشابهة لنفس أحداث ١٩٧٧ ولكن المشعل لفتيل الثورة مختلف، ففي الأولى بدأت من منطقة حلوان، والثانية اشتعلت من معسكرات الأمن المركزي حين سربت إشاعة أن التجنيد الإجباري سيتم زيادة عدد سنواته- وهذا التجنيد في مصر يعد واحدا من أنواع الرق من وجهة نظر محمد- فخرج المجندون الجهلاء تحركهم قوى الشر فدمرت منطقة الهرم بما فيها من ملاه ليلة وبازارات، فكان الحل- وكالعادة- باللجوء إلى الجيش فكان الصدام بين جانبي الأمن في مصر الجيش والشرطة وأسفر ذلك عن حظر تجول في جميع أنحاء مصر من الليل وحتى الصباح الباكر.

استمرت حالة الانفلات الأمني لمدة أسبوع أعلن فيها حظر التجول وانتشرت قوات الجيش في شوارع القاهرة وأعتقل العديد من جنود قوات الأمن المركزي وبعد انتهاء هذه الأحداث واستتباب الأمن تم رفع حظر التجوال وأعلن عن إقالة اللواء أحمد رشدي وزير الداخلية آنذاك وعزل العديد من القيادات الأمنية واتخذت العديد من القرارات لتحسين أحوال الجنود والحد من أعدادهم ونقل معسكراتهم خارج الكتلة

السكنية. كما اتخذت قرارات بتحديد نوعية الجنود الذين يلتحقون بالأمن المركزي مستقبلًا.

وما لبثت أن هدأت الأوضاع وعاد الشعب المصري أو المواطن المصري إلى طبيعته الأولى مسالما أو بتعبير أصح (مكبر دماغه).

استفاق محمد من غيبوبته ولم يجد المظاهرات ولا العساكر التي كنت تمر أمامه منذ قليل حتى صوت فتح أبواب الزنازين كان يتراءى له وكأنه يحدث لحظيا.

الهروب إلى الماضي ١٧

عاد محمد إلى بيته ووجد وفاء تنتظره حيث اخبرته أنه غائب عن المنزل منذ أكثر من يومين وقد خافت ان تتصل بعمله أو أصدقاءه حتى لا تسبب له شوشرة.

قبلها محمد على جبينها وأحتضنها وأرخى رأسه على كتفيها فتعجبت فمنذ أيام الخطوبة وأول الزواج لم تشعر به وبحبه وبحنانه مثلما تشعر الأن فكل الفترات السابقة كانت حياتهم الزوجية تقليدية روتينية ليس فيها جديد خاصة مع ولادة أخر العنقود.

لم تترك وفاء هذه الفرصة تذهب عبثا فهي تحب محمد لا ليس تحبه فقط فهي تعشقه عشق فمنذ وقعت عيناها عليه في الجامعة والتقت عينهما شرارة الحب الأولى وهي لا تجد نفسها إلا معه وفيه ومن خلاله حتى أنها لم تباشر أي عمل رغم حصولها على درجة الهندسة مثله رغبة في الوجود معه لأطول فترة ممكنة فكان يومها يبدأ معه وينتهي معه تحضر له الفطار وتنتظر أن يستفيق ومن ثم يتناولاه سويا وتعقبه كنكة القهوة بأشهى فنجان كما كان يمدحه قديما.

امتزجت مشاعرهما معا وأفصحت له عن مكنون حبها قائلة له: بحبك أوي يا محمد حضنك وحشني من زمان.

فيرد قائلا: أنت كمان وحشتيني قوي من زمان ملقتش نفسي على طول ضايع مش قادر أعرف أنا فين المكان الوحيد اللي لقيت فيه نفسي هو حضنك.

أوعي تسبيني يا وفاء أنا فعلا ماليش غيرك أنت كل حياتي وكل أهلي.

هيأت وفاء نفسها لليلة من ليالي الزواج الأولى فذهبت إلى غرفة نومها وارتدت أجمل قمصان النوم التي يحبها وتعطرت له ونادته بكل حنية : محمد تعال عايزة أوريك حاجة.

يذهب محمد إليها وهو على ثقة بأن هذا نداء الأنثى وليس نداء وفاء وحين يتأهب ليأخذ مكانه بجوارها ترى فجأة أخر العنقود وقد وقف حائلا بينهما قائلا: ماما أنا جعان وعايز أكل.....

ما كان من محمد إلا أن سبه قائلا: الله يخرب بيتك وبيت أمك وبيت الحكومة وبيت أبوكم كلكم حتى أنت يا ابن كلب ربنا خلقك عشان تعكنن علي. جتكم القرف قرفتونا. ويسحب الغطاء ويذهب إلى غرفة المعيشة لينام على الكنبة كما تعود غالبا.

الهروب إلى الماضي ١٨

نام محمد في هذه الليلة وهو غاضب أشد الغضب من حياته كلها ليس فقط مما حدث مع وفاء، فحياته الخاصة لم تعد ملك له وحياته العملية لم تعد ملك له حتى هو لم يعد ملكا لنفسه مما زاده شعورا بالاكتئاب من كل واقعه المرير.

استيقظ محمد مبكرا على غير عادته فقد أراد الذهاب إلى النادي لينفس عن نفسه من خلال المشي في المضمار ومع بداية اللفة الثانية سقط مغشيا عليه في رحلة غياب من غياباته ولكن هذه الرحلة كانت أشد قساوة عليه ففي هذه اللحظة كان يشاهد التلفاز مستمتعا بالعرض العسكري الذي يحضره سيادة الرئيس المؤمن الملهم القائد كان يرى في السادات كاريزما معينة لم يجدها في أحد من القادة ولا الرؤساء الأخرين كان مهيبا في شخصه أنيقا متحدثا لبقا يتمتع بالمكر والدهاء السيسي لا يمكن لأي أحد ولا حتى زوجته السيدة جيهان السادات أن تتنبأ بما يمكن ان يفعله ولعل إعلانه على الذهاب إلى القدس كان لحظيا وغير مقرر له خلال هذا الخطاب في مجلس الشعب ليفاجئ السادات العالم كله

برغبته في الذهاب إلى إسرائيل ولعل هو نفسه فوجئ بهذه الكلمات تخرج من فمه.

كانت تلك الفترة هي مرحلة ختام الدراسة الإعدادية والانطلاق نحو المرحلة الثانوية وخلال هذه الثلاث سنوات من حياته فيما بينهم مرت مصر والعالم العربي بل والعالم كله بحدث استثنائي فحين أعلن الرئيس من أسفل قبة مجلس الشعب أنه على استعداد للذهاب إلى أبعد نقطة في العالم لتحقيق السلام بل أنه على استعداد بالذهاب للكنيست الإسرائيلي نفسه.

هذا الإعلان سبب ربكة في العالم ما بين مصدق وما بين مكذب وما بين من ينتظر نتيجة هذا التصريح من قبل الدول الكبرى خاصة أمريكا التي تحسنت علاقاتها بمصر بعد حرب أكتوبر بشكل يفوق الجانب الأخر من العالم وهم الروس.

دعا زعماء إسرائيل السادات بالذهاب إلى القدس برعاية أمريكية واستطاع السادات أن يُنهي باتفاقية السلام – شئنا أم أبينا- فترة ممن الصراع العسكري الذي أنهك جسد مصر اقتصاديا واجتماعيا وعسكريا.

على الجانب الأخر تبنى الرئيس العراقي صدام حسين موقفا مضادا لهذه الاتفاقية وهدد كل من يوافق عليها من العرب وكان صدام حسين رحمه الله قائدا مهيبا شرسا لا يتوقع ردة فعله أقرب من حوله وبدأت الدول العربية في قطع علاقاتها مع مصر عدا سلطنة عُمان والصومال والسودان.

ورغم ما وفرته هذه المعاهدة للفلسطينيين من حقوق في هذا الوقت إلا أنهم ساروا مع التيار ورفضوها هم والسوريون تماما ومع مرور الزمان تأكدت صحة توجهات السادات فحتى الأن لم تتحرر القدس ولم تعد فلسطين عربية ولازالت مرتفعات الجولان محتلة.

وكلما مرت الطائرات أو السيارات من أمام الرئيس زادت ثقته في جيشه وزادت ابتسامته وشموخه ولكن فجأة توقفت إحدى السيارات وترجل منها أكثر من شخص يحملون بنادقهم الآلية ويصوبونها نحو القائد ومن معه من قادة الجيش ونائب رئيس الجمهورية والحضور من الضيوف من الدول الأخرى ويعلو صوت المذيع خونة خونة خونة كررها أكثر من مرة وفجأة انقطع الإرسال.

لم يعرف محمد ماذا حدث فقط جرى مسرعا نحو أمه ليقول لها: إلحقي يا ماما قتلوا الرئيس الخونة قتلوه، سألته مين اللي قتل مين؟ قال:

العساكر نزلوا من العربية وقتلوا قائدهم. وضعت يدها على رأسه متخيلة أنه مريضا يعاني من أثار حمى أو ما شبه ذلك ولكن عودة أبيه المبكرة إلى المنزل أكدت لأمه أن هناك شيء خطير قد حدث.

سألت الحج صلاح: خير يا حج؟ كان رده كما كان يردد محمد: الخونة قتلوه، قتلوه يوم احتفاله بالنصر كلاب كلهم خونة لمصر عايزينها تبقى ديما في القاع بس ده مش هيحصل أبدا. مصر هتفضل ست العالم كله وأم التاريخ ويدخل في نوبة بكاء ربما هي المرة الأولى التي يرى أبيه يبكي ولعلها الأخيرة.

الهروب إلى الماضي ١٩

لقد كانت اتفاقية كامب ديفيد سببا في قيام الإسلاميين بقتل السادات ولازال التاريخ عاجزا عن تفسير كيف وصل هؤلاء الإرهابيون إلى المنصة وقتل السادات ولماذا لم تصب رصاصاتهم نائبه في ذلك الحين محمد حسني مبارك.

كان مقتل السادات في عام ١٩٨١ بدءا لمرحلة جديدة في حياة محمد خاصة وحياة مصر عامة، فقد تولى الرئيس محمد حسني مبارك سدرة الحكم في مصر بعد فترة من الاضطرابات التي شهدتها البلاد نتيجة الخطة التي وضعها الإسلاميون للسيطرة على مصر وتولي الحكم بزعم بدء الجهاد نحو القدس.

في هذه الفترة فقد محمد واحدا من أقرب أصدقاءه المقربين ففي صبيحة أحد الأيام كان يطالع جريدة أخبار اليوم ليجد في صفحة الوفيات إعلان عن وفاة زميله نور أحد طلاب المدرسة نتيجة حادث مأساوي وللمرة الثانية يفقد محمد واحدا من المقربين له بعد وفاة زميلة في الحضانة.

وقد أصابه هذا الفقد بحالة من الكآبة وهي حالة ازدادت سوء مع وضع البلاد غير المستقر خلال هذه الفترة فقد بدأ يسمع عن حالات اعتقال

واغتيالات وتطهير في الجيش وغيرها من المفاهيم الجديدة على أذانه خاصة مع بلوغه سن المراهقة.

استفاق محمد من غيبوبته ووجد أناس كثيرة من حوله يعرف بعضهم وكثيرا منهم لا يعرفهم وكان من بينهم زوجته وفاء التي استدعها المسؤولون في النادي سريعا.

التفت محمد نحو وفاء وسألها:

أيه اللي حصل يا وفاء؟

مفيش يا حبيبي شكل تعب الشغل حل عليك وأنت بتلعب رياضه تعبت شوية.

قولي الحقيقة يا وفاء في أيه؟

مفيش يا محمد والله هي دي الحقيقة هأكدب ليه؟

تكدبي ليه هي عادتك ولا هتشتريها.

أنا عايز أروح.

استنى شوية الدكتور جاي وهننقلك على المستشفى.

ليه أنا مفييش حاجة أنا عايز أروح.

يا أخي بطل عند بقى حتى وأنت عيان عنيد.

صلوا على النبي يا جماعة خلوا خناقاتكم في البيت.

أنت مين سأله محمد؟

أنا اللي شلتك لما أغمي عليك.

يا سيدي شكرا. بس متتحشرش تاني بين وبين مراتي الله يخرب بيوتكم بأتوا حشرية كلكوا كده ليه.

حضرت سيارة الإسعاف وتم نقل محمد إلى مستشفى الراحة الحكومي.

الهروب إلى الماضي ٢٠

وصلت سيارة الإسعاف إلى المستشفى وتم إدخال محمد إلى الاستقبال وعند انصراف ممرضي السيارة مال أحدهم على محمد قائلا: حمدا لله على السلامة يا باش مهندس كل سنة وأنت طيب.

رد محمد : يعني عايز أيه بروح أمك أنت كمان أنا عيان وبموت وأنت عايز تقلبني دي بقت حاجة وسخة يلا يابن الكلب من هنا.

أنا ابن كلب والله ما حد أبن كلب غيرك أنت وكان الله في عون مراتك ده أنت راجل غليظ وقليل الأدب المرة الجاية راح اشيلك وأنت ميت يا رب الله لا يشفيك.

تعال هنا يا حيوان رايح فين؟ هاتولي الأمن فين الأمن ؟

في أيه يا محمد تقول وفاء أنا خلصت أوراق دخولك الاستقبال ودفعت العربون .

عربون أيه يا ست أنتي هو أنت حاجزة جزمة ولا شنطة.

يا أخي أنت على طول كده مش طايق لي كلمة خلاص خلاص المهم تطلع بالسلامة.

فين الدكتور؟

يرد التمرجي : الدكتور لسه مجاش.

أمال مين اللي هيكشف عليا.

استنى لما يجي الدكتور.

يعني أموت يعني لحد ما يجي الزفت بتاعكم ده.

متقولش زفت دكتورنا محترم وأنت شكلك راجل قليل الأدب.

قليل الأدب طب أنا هأوريك يا حيوان أنت.

يرد التمرجي : بقول لك أيه نهارك أبيض وكفاية كده هو اليوم باين من أوله.

يحضر الدكتور بعد فترة ويمر على الاستقبال ويأتي إلى سرير محمد قائلا:

صباح الخير يا باش مهندس.

صباح الخير يا دكتورنا.

ها بتشتكي من أيه؟

عندي البواسير يعني أنت غريب أوي.

أه أنت منهم بقى.

من مين يا دكتور؟

لا خلاص ماشي ماشي.

ماله جوزك يا مدام؟

أبدا كان بيلعب رياضه وأغمي عليه.

يميل الدكتور رأسه على أذن محمد قائلا:

عيار كام؟

فيرد محمد عيار أيه يا عم أنت؟

وطي صوتك مراتك هتسمعنا . عيار كام؟

قصدك الفياجرا يعني.

آه ١٠٠ ملي

ومارست حياتك الطبيعية؟

لا طبعا الواد ابن الكلب دخل علينا.

طب يا سيدي بعد كده لما تاخد الحبوب دي أما تتنيل تنام مع مراتك أو تنام لوحدك بس أياك تلعب رياضه فهمت.

وطي صوتك يا دكتور هتفضحنا.

دلوقت وطي صوتك ومن شوية عامل فيها رامبوا.

هأكتب لك شوية فحوصات وتحاليل أعملها ولما تطلع تعال لي.

أروح يعني يا دكتور؟

أيوه ولا أنت فاكره فندق عائلتكم.

وأنت يا مدام خدي بالك من جوزك شوية أحسن مخه فوت.

يا دكتور ده مجننا كلنا.

يجننكم أنتم وأنا أيه دخل أمي؟

مع السلامة.

الهروب إلى الماضي ٢١

دق جرس الموبيل وكان هاني ابن خالة محمد على الخط:

صباح الفل يا هندسة سلامات.

الله يسلمك شوية تعب والحمد لله.

الحمد لله يعني تقدر تخرج أخر الأسبوع .

أه بإذن الله ليه في أيه؟

الشلة بتاعت المدرسة عاملة عشاء في مطعم وبلغوني أكلمك.

معاكم يا ريس.

رايح فين ؟ تسأل وفاء؟

رايح لشلة المدرسة، هنتعشى سوى.

رايح تشوفها يعني.

أشوف مين يا مجنونة أنت، أحنا عدينا الخمسين خلاص يلا حسن الختام.

بلا حسن الختام بلا كلام فاضي أمال لابس ومتشيك وحاطط البرفان ده كله عشان المعاتيه بتوعك؟ ما أنت بتقابلهم على القهوة كل كام يوم، أنت لسه بتحبها يا محمد؟ قول لي متخبيش علي؟ أنت مبتحبنيش هي بس اللي في بالك.

يا بنت الناس أحب مين وأكره مين أنت عارفة أنك حبيبتي وروحي وعقلي وقلبي.

أوع كده متضحكش علي زي كل مرة.

طب انا هأروح شوية وأرجع لك بس عايز أشوف وفاء بتاعت زمان ليلتنا فل إذن الله.

متتأخرش لو تأخرت هنام وذنبك على جنبك.

مساء الخير يا شباب أزيكم.

يرد الجميع على محمد ولكن صوت واحد فقط هو الذي يصل إلى سمعه صوتها هي حبيبته التي لازال يعشقها فهي حب المراهقة وحب عمره منال.

أزيك يا منال عاملة أيه؟

ترد بخفر ودلال كبنت السادسة عشر بخير يا ميدو أنت عامل أيه وحشتني.

يحمـر وجهـه ويتعـرق ويهـبط جالسـا على كرسـيه في مقابلهـا وتتـوالى ذكرياتهما معا بدأ من يوم قرر أن يعترف لها بحبه فهي أول من دق قلبه لها ، وأحمرت وجنتيه عندما رأها لأول مرة، وبعد طول تفكير كان جواب حبه هو أول جواب يكتبه في حياته كتبه لها بروحه واحساسه وجميع خلجاته كتب لها :

حبيبتي منال:

هذا خطابي الأول لك ولا أعرف أيصل إليك أم لن يصل ولكني أقول لك بقلمي ما عجزت شفتاي عن البوح به أقولها هامسا لك في أذنيك أقولها وقلبي يكاد يقف وأنا أرتجف: أحبك من كل قلبي

عاشقك محمد

وضع محمد الخطاب في كتاب التاريخ للصف الأول الثانوي وانتظر ردها وفي اليوم الثاني رأته فرمته بنظرة ما يظن أن معشوقة قد رمت معشوقها بمثلها أبدا. عرف من خلالها أنها تحبه وعاشا معا ثلاث سنوات من الحب السرمدي حبا يجمعهما فقط دون من حولهما كانت الحياة عبارة عن محمد ومنال أو منال ومحمد حتى أمه رحمها الله وأخوه حسن توقعا أن تكون منال هي زوجته من كثرة ما سمعا عنها ولكن فرقتهما الأقدار بدون أي

سبب مقنع فقد اختفت بعد نهاية المرحلة الثانوية وبحث عنها ولكن الجميع من أفراد الشلة عانى نفس معاناته في التواصل معها لتظهر بعد عشرة سنين فجأة قادمة من الخارج بصحبة زوجها الدبلوماسي وأبناءها بعد رحلة صاحبت فيه زوجها في دول متعددة وتواصلت مع الشلة ليعود حبها نابضا في قلبه مرة أخرى.

محمد، يلتفت بحثا عمن يناديه ليجدها تقول له:

اللي أخذ عقلك يتهنى به، أكيد وفاء والأولاد وحشوك.

كان يتمنى أن يصرخ فيها ليقول لها أنت. أنت من أخذ عقلي وفكري وأسر كل حياتي ولكنه لا يستطع فقد حُشرت الكلمات في فمه وتوقف عن الكلام.

كان يريد أن يقول لها لقد ضاعت أحلامي حين غربت شمسك عني حين توارت عن حياتي توقف قلبي عن الحياة أنت فقط من تملكين قدرة استعادته إلى الحياة فكلما اجتمعنا أُحس بدقات قلبي تعلو وتعلو كأنه في ماراثون استعادتك قبل أن تختفي مرة أخرى. أنت وأنت فقط من تجعلين لحياتي قيمة وتشعرينني أني لازلت حيا أتنفس هواك أعشق

رؤياك. أحبك..... قالها ليجدها تناديه ثانية: خلينا نشوفك تصبحوا على خير يا بنات.

انتهت السهرة وعاد محمد إلى بيته ليجد وفاء في انتظاره ليعيشا معا أحلى ليلة منذ أكثر من عشر سنوات فقد أخرج كل شحنة العاطفة التي تلقها من منال في هذه الليلة حتى أن وفاء شكت في تعاطيه للمخدرات أو المنشطات قائلة:

أنت شارب أيه يا راجل أيه النشاط ده كله وأيه الكلام الحلو ده كله أكيد ما أنت لسه شايفها.

التفت لها محمد ونظر إليها ومن ثم أغمض عينيه ونام.

الهروب إلى الماضي ٢٢

استيقظ محمد على صوت وفاء وهي تنادي على الأولاد للذهاب إلى المدرسة وكأن عجلة الزمان لا تتغير فها هي وفاء تعاود هوايتها في إزعاجه بصياح لا داع له حيث يتأخر الأولاد كعادتهم دائما وتواصل هي الصياح دائما كان يتمنى بعد هذه الليلة أن تكون وفاء هي منال التي لا يكاد يُسمع صوتها.

تغلب محمد على إرهاق ليلة أمس وقام من مرقده فاليوم لديه اجتماع هام مع سعادة مدير عام الشركة والذي سيناقش مع الفريق سياسة الشركة خلاله الخطة الجديدة.

تناديه وفاء: متتأخرش النهاردة زي كل يوم

ليه يا ستي على الصبح في أيه ؟

ناهد بنت عمي وجوزها هيثم هيزورونا النهاردة وعاملة لهم عشا مش معقولة يجوا ويستنوا حضرتك لحد الأكل ما يبرد. هي عادتك ولا هتشتريها.

أنت بترغي كثير ليه خلاص قلتي ما تتأخرش ليه الزن الكثير والكلام اللي مالوش لزمة.

حبيت أفكرك بس ما هو أنت كل مرة بتقول نفس الكلام وبتتاخر.

وأنت كل مرة بتقولي نفس الكلام وبتأخر برضك.

يستقل محمد سيارته وينطلق إلى عمله ولكنه في طريقه يقرر التوقف عند أقرب كوفي شوب فهو يشتهي حجر معسل من أمس ولكن أصحابه لم يطاوعوه فقد عادوا إلى منازلهم بعد العشاء مباشرة.

يتوقف محمد عند قهوة في إحدى المناطق الشعبية حيث تعود في بعض الأحيان ومنذ صغره أن يجلس عليها حتى صارت صداقة بينه وبين القهوجي وبينه وبين صاحب القهوة.

صباح الخير يا صابر. صباح الخير يا معلم أشرف.

صباح الفل يا هندسة. إيه اللي رساك عندنا بدري اليوم؟

حبيت اصطبح يا معلم بيك وبحجر الواد صابر الحلو.

على راسي يا هندسة. يرد صابر .

يقوم المعلم من على المكتب ويذهب إلى حيث يجلس محمد ويدور بينهما حوارا حول البلد والأحوال.

يسأل المعلم محمد، أيه الأخبار يا هندسة؟

والله يا معلم مش عارف أقول لك أيه في حاجات كثير كويسة وفي حاجات كثير مش ولا بد وفي حاجات زي الزفت.

أنت هتلخبط دماغي وتطير الصاروخ بتاع الصبح وتفوقني ليه. مش فاهم.

شوف يا معلم في مشاريع كثير كبيرة قوي بتم دلوقتي بس أحنا مش حاسين بيها وفي حاجات اتحسنت بس محتاجة زقة زي الكهرباء والنظافة وفي حاجات زفت زي الغلا.

أه فهمت يهي أنت مبسوط ومش مبسوط.

تمام يا معلم زي ما قلت أنت كده.

ينتفخ المعلم أشرف في جلسته ويقول لمحمد: اسمع مني بقى يا هندسة أنا هأقول لك المفيد.

أنا كنت عايش هنا ومبسوط ودخلي حلو والحمد لله ما هو أنت عارف إن القهوة ورث عن أبويا الله يرحمه وأنا اشتريت باقي نصيب أخواتي لكن من فترة كده بقيت أحس أن الوضع مش ولابد اللي جاي مش مكفي اللي رايح بدأت أشك في العيال اللي في القهوة تكون بتسرقني لكن الله يشهد أنهم كلهم أمناء. القهوة كل يوم فل بالليل بالذات لكن مفيش دخل بديت

أركز شوية لقيت الناس اللي همه زباين كل يوم بدل الواحد منهم ما يطلب طلبين ثلاثة بقى يلا يطلب طلب ويقعد عليه الليلة كلها حتى الحجارة اللي كان بيشربها قلت قمت أيه قعدت مع واحد فيهم وسألته أنت عايز مساعدة ولا حاجة يا رفعت . رد لا والله يا معلم بس الغلا والكوى مخلاش حد ولولا أن القعدة هنا هي المتنفس الوحيد ليا ما كنتش جيت. يا معلم أنا موظف حكومة ومبعرفش أرتشي ومراتي مدرسة ألعاب وعندي ٣ عيال ودخلي في الشهر حوالي ٤٠٠٠ جنيه ورغم كده تعبان يا معلم الفلوس بتخلص يوم ١٠ من الشهر وأدور على أخواتي وأمي أستلف منهم وزي ما أنت عارف أنا مليش شغلانة تانية. والله يا معلم بيعدي الشهر والشهرين وما بنشوفش اللحمة في بيتنا، تفتكر يوسف اللي كان بيجي معايا اللي كان شغال في مصلحة المياة. أه ، ماله.

مش ملاحظ أنه بطل يجي معايا.

أنا قلت مشغول ولا حاجة.

لا يا معلم يوسف اتجلط وقعد في البيت بقى مقعد مشلول يا حاج وكله بسبب الغلا راح يشتري جزمة رياضة لأبنه قالوا له أقل جزمة كويسة ب٥٠٠ جنية قعد يتخانق مع صاحب المحل على الطمع لما ضغطه علي وطب ساكت ومن يومها وهو كده.

شوفت بقى يا هندسة الدنيا وخدنا على فين؟

هات الحساب يا صابر.

رايح فين يا هندسة مخلصناش كلامنا.

يركب محمد سيارته وهو متخيل يوسف رغم عدم معرفته به إلا أنه كان يراه كثيرا في القهوة يضحك ويملئ المكان بهجة فيسأل نفسه عايزه أيه مننا يا مصر؟ مودينا على فين؟ بتأكلي ولادك ليه؟

يصل محمد لمقر الشركة ليجد سكرتير المدير العام يسأل عنه أكثر من مرة.

مهندس محمد. خير يا نادر في ايه لسه بدري على الاجتماع.

بيقول لك سعادة المدير لا تنسى تحضر معك ملف مدينة العلمين الجديدة علشان يعرضه في الاجتماع.

يعني يوسف ينجلط علشان ٥٠٠ جنيه وأنتم بتبيعوا المتر بخمسين ألف جنيه.

بتقول حاجة يا باش مهندس

لا يا سيدي ما بقولش. حاضر هجيب الزفت معايا.

يدخل محمد الاجتماع ويبدأ رئيس مجلس الإدارة في حديثه عن المشروع وأهمية المشروع وكيف أن هذا المشروع يعد واحدا من أهم المشاريع التي تهتم بها الرئاسة وأنه بنفسه (بعد أن أنتفخ في كرسيه) قابل سيادة الرئيس وسأله عن المشروع، المشروع المشروع المشروع ، هي الكلمة الوحيدة التي ظلت تتردد على مسامع محمد حتى أنه مع انتهاء الاجتماع سلم على زملاءه قائل: مع السلامة يا مشروع وهو يضحك فأمسك به أحدهم قائلا: يا أخي هو أنت على طول كده أخد الأمور تهريج متعرفش تبقى جد وطي صوتك أحسن الراجل يسمعك ويفتكرك بتتريقأ عليه وتبقى أخرتك قهوة الهرم.

يعود محمد إلى المنزل متأخرا كعادته ليجد ناهد وزوجها هيثم وبعد الترحيب والتحية والسلامات والسؤال عن الأحوال يبدأ محمد في مطالعة الوجوه ليجد ناهد قد أصبحت شبيهة ليلى علوي وأن هيثم قد أصبح مربع الحجم من كثرة التخن فضحك في نفسه وتسأل هل الفلوس فعلا بتغير النفوس، فهيثم كان صاحب محل كماليات في منطقة التوفيقية يبيع إكسسوارات سيارات، ولم يكن من كبار التجار ولكنه يعيش على عملهم، فهو يشتري منهم جملة ويبيع في محله قطاعي حتى جاءه يوما وطلب منه أن يشاركه في استيراد هذه الإكسسوارات بنفسه من الصين

بدلا من أن يشتريها من التجار، ويتذكر محمد كيف سخر منه قائلا : أنت يا هيثم عايز توقف أمام الحج غريب والحج متولي و.... ، فرد هيثم وليه لأ يعني همه أتولدوا بتوع إكسسوارات ولا أصلهم صيني، وأعتذر محمد له بحجة عدم وجود سيولة، وعرف محمد بعد ذلك أن ناهد باعت ذهبها وأنهم باعوا شقتهم في المهندسين ووضعوا كل ما يملكوا من أموال في هذه الصفقة أو صفقة القرن نسبة إلى ما يسمعه حولها وبعد فترة سأل وفاء عنهما لتبلغه أنهما استطاعا استرداد أموالهما مرة أخرى بل واشتريا فيلا في التجمع وشاليه في سيدي عبدالرحمن و.... فرد عليها جتنا نيلة في حظنا الهباب ناس لها ناهد وناس لها وفاء لتقول له وفاء : بتقول حاجة يا محمد؟

يعود محمد إلى السهرة مرة أخرى بعد هذه الرحلة القصيرة في تاريخ هيثم وزوجته ليجد هيثم يسأله: أخبارك أيه يا باش مهندس؟ يا ترى مبسوط في الشغل دلوقتي؟ البلد كلها شغالة مقاولات زمانك بتقبض فلوس قد كده من المشاريع والأوفر تايم وأحنا قاعدين نعد الزبائن على بعض في السوق، ياريتني سمعت كلامك وفضلت على قد المحل بلا استيراد بلا زفت. يا عم حتى الدولار اللي كنا بنجيبه من السوق السودة اختفى

والبنك فيه دولارات بس أدفع جمارك بقى يا حلو تخلي السلعة اللي من الصين بجنية تسوى ١٠٠ جنيه في مصر.

الهروب إلى الماضي ٢٣

يجهز محمد ملف مشروع العلمين بناء على طلب رئيس مجلس الإدارة والذي يتضمن بناء ١٩٨٠ وحدة سكنية مختلفة المستويات وحين يقرأ الرقم تعود به ذاكرته إلى حرب العراق وإيران التي اندلعت بعد توقيع اتفاقية كامب ديفيد وقطع العلاقات المصرية العربية وقد استمرت هذه الحرب مدة عشر سنوات كاملة من عمره بدأت مع المرحلة المتوسطة وانتهت بتخرجه من الجامعة فكانت جزءا مهما من أحداث حياته اليومية فكل يوم هناك خبرا عن الحرب يذاع في وسائل الإعلام ويتناقله المصريون بينهم وخاصة أن كثير من المصريين وخاصة في الأرياف استفادوا أيما استفادة من هذه الحرب حيث توفر لهم فرص عمل هائلة في العراق نتيجة تجنيد أغلب الرجال في الحرب.

تعد هذه الحرب من أشرس الحروب التي اجتاحت المنطقة حين اجتاحت القوات العراقية الأراضي الإيرانية بعد زيادة التوتر بين القوات على الجانبين واستعر لهيب الحرب واستطاعت القوات الإيرانية صد الهجوم العراقي واستمرت على مدار ست سنوات هي الطرف الأقوى وحسب ما أشيع في ذاك الوقت أن دول الخليج طلبت تدخل القوات

المصرية لكبح جماح القوات الإيرانية قبل أن تجتاح الأراضي العراقية ومن ثم دول الخليج وعلى ما يعتقد أن تدخل القوات المصرية بالدعم اللوجستي للقوات العراقية وصد القوات الإيرانية كان أحد أهم أسباب عودة العلاقات المصرية العربية وعودة جامعة الدول العربية إلى مقرها في مصر.

ولعل من أبرز ما ميز هذه الفترة في حياته حين تذكر إبراهيم الخيال ذلك العامل الفقير الذي كان يعمل في معرض والده وكيف ترك المعرض وسافر إلى العراق بحثا عن رزقا سريع، لقد حكى له إبراهيم عن العراق وجمال هذه البلاد وفتنتها، وحكى له أيضا عن جمال نساءه وكيف تمنى من خلال حديث الخيال بعد عودته من العراق أن يتزوج من هذه البلاد وأن يعيش فيها ولكن هيهات هيهات فليس كل ما يمناه المرء يدركه، والأن أين العراق؟ لم تعد العراق عراقا، ولم تعد النساء جميلات، فقد شوهت الحرب ملامح كل شيء حتى الرافدين حزنا على ما حدث للعراق فتسممت مياههما.

وعادت به الذاكرة مرة أخرى إلى العراق بعد أحداث ١١ سبتمبر وكأنه مكتوب على العراق ألا تنعم براحة فقد تم توجيه أصابع الاتهام إلى الرئيس الملهم صدام حسين رحمه الله بأنه يمتلك أسلحة نووية وبدأ

الاستعداد لتدمير العراق واحتلال الخليج بزعم حمايته فكان الغزو الأمريكي للعراق بتحالف غربي مشمول برعاية صهيونية وخيانة عربية خارج العراق وداخله فقد صمد الرئيس العراقي امام الغزو الخارجي لفترة طويل أما الخيانة الداخلية فقد فتحت الباب لنهاية العراق بل وفتحت الباب لنهاية الأسطورة صدام حسين بعد محاكمة عبثية من خونة عراقيين ورعاية مشبوهة من الغرب، كان صدام هو الفائز بها ورغم إعدامه في صباح العيد إلا أن كلماته بقت محفورة في سجلات التاريخ وذهب جلادوه إلى مزبلة التاريخ.

أحب محمد الخيل فكانت هذه الفترة من أجمل فترات عمره حيث كان يختلس بعض الساعات في نهاية الأسبوع للذهاب إلى منطقة الهرم وامتطاء صهوة جواد جامح، كان ينطلق بجواده بكل سرعة ممكنة يشق به ساعات الزمان، كان يريد كل شيء يريد الجامعة ويريد منال ويريد أن يسعد والديه وأخيه حسن، كان يغيب عن الوعي وهو على ظهر الحصان يتخيل نفسه فارسا من عصر أخر جاء ليحرر قيود العالم وقيوده وكلما زادت سرعة الحصان زادت سرعة تولد أفكاره وطموحه ورغباته التي لم يعد يستطيع أن يكتمها، وكلها ورغم مشروعيتها لم تتحقق، فهو لم

يتزوج منال، والتحق بتخصص أخر في الهندسة لم يكن يحبه، حتى أبواه ماتا وتركاه وهاجر حسن وتركه وحيدا في دنياه.

في هذه الفترة كان محمد قد وصل للمرحلة الثانوية وبدأ في تحديد مصيره وكان غالبا مربوطا بظل والده صاحب المعارض ولكنه استطاع أن يكسر هذا القيد وأن يقرر أن يكون مهندسا بعيدا عن التجارة ومشاكلها.

وفي الثانوي عرف المشاكسات والمغامرات والتدخين والتزويغ من المدرسة ورغم ذلك كان يحتفظ بسمات التربية الشديدة التي ربته عليها أمه فكان شرب السجائر أخر مراحل الصياعة من وجهة نظره.

خلال هذه المرحلة التصق أكثر بوالده وتعلم منه الكثير تعلم منه معنى الرجولة والصدق والشهامة والعطف فكان كلما اقترب منه اكتسب صفة أخرى من الصفات التي ميزت أباه في وسط السوق ووسط رجال المعارض، فكلمته سيف على رقاب الجميع، كان التجار الأخرين بل وأصحاب المحلات المجاورة يحبونه ويقدرونه وبالتالي كان محمد ينال نفس التقدير بل وأكثر فكانوا يلقبونه أحيانا بولي العهد وأحيانا أخرى بالبرنس كون أن أبيه كان ملك سوق السيارات.

الهروب إلى الماضي ٢٤

دخل محمد إلى قاعة الاجتماعات، حيث وجهه المدير بضرورة السفر إلى المشروع والبقاء هناك حتى يقوم سيادة الرئيس بزيارة المشروع.

عاد محمد إلى المنزل ليجد وفاء في انتظاره وهي مرتديه أفخر ملابسها وقد تعطرت بالعطر الذي طالما أحبه منذ كان يشتمه على منال حبه الأبدي، استغرب محمد فهذا ليس من عادتها لتفاجئه بأن اليوم عيد زواجهما الخامس عشر وأيضا عيد ميلاده الواحد والخمسون، استغرب محمد كيف نسى هذه المناسبة ولأول مرة لا تغضب وفاء لعدم تذكره ولكنها أرادت أن يحتفلا سويا فحجزت لهما مكانا في مطعم سكويا في الزمالك وهو من أشهر المطاعم في مصر في هذا الوقت، بل وتربط محمد نفسه بهذا المطعم ذكريات جميلة، فقبل أن يكون اسم المطعم سكويا كان يسمى سولت أن بيبر وهو المطعم الذي ارتبط بأوقات كثيرة في حياته بدءا من التزويغ من المدرسة والتسكع على شاطئ النيل في نفس المكان هو وصديقيه مجدي ومحمود، كانوا يخرجون من المدرسة ويمشون في شوارع الزمالك بلا هدف مجرد تمرد على الواقع وعلى أوامر الذهاب للمدرسة التي يتلقونها من البيت ومن إدارة المدرسة بل ومن المدرسين.

ولعل من أجمل ذكرياته حين بدأ في ممارسة رياضة التجديف وكان النادي الذي انتسب له في نفس المنطقة وكان التدريب يبدأ مع صلاة الفجر حيث يمارس اللاعبون الهرولة في شارع أبو الفدا وحتى ناصية الكازينو وهناك رأى لأول مرة في حياته أصحاب الليل في مصر فهو ومن يعرفهم من أصحاب النهار أما أصحاب الليل فأغلبهم من مرتادي مثل هذه الكازينوهات والملاهي الليلة فرأى لأول مرة السكارى والغائبين عن الوعى والبودي جارد وأصحاب السيارات الفارهة ورأى أيضا الجانب المظلم من هذا المكان وهي طبقة العاملين والهامشيين المترزقين من هذا المكان رأى من يدفع للسياس ١٠٠ جنيه بقشيش وأعطى للشحات جنيها واحدا وهو قد أنفق عشرات المئات من الجنيهات على الراقصات والغواني وفتيات الليل، رأى السياح الخليجيين والأجانب وقد خرجوا جميعا مترنحين بعد ليلة من ليالي ألف ليلة عاشوها داخل هذا المكان، ورأى الراقصات اللاتي يخرجن من الكازينو يضعن العباءة على بدلة الرقص ولا ينسى يوم فتحت إحدى الراقصات العباية أمامه وأمام باقي الفريق فتوقفوا جميعا عن الهرولة وأخذوا يحدقون في الراقصة والتي من كثرة سلطنتها مارست الرقص لمدة ثوان نقلتهم من الواقع إلى الخيال

حيث تمنى كل منهم أن تكون رفيقته ولو لعدة ساعات يعيش فيها كأنه ملك لا سلطان عليه.

يصل محمد ووفاء إلى الكازينو حيث استقبلهم valet السيارات وأخذ منهم المفتاح وهنا قال لها محمد: الله يرحم أيام زمان لما كنا نقول على الجدع ده سايس بلا valet بلا دوشة.

يدلف محمد إلى المكان المزدحم دائما ويختار طاولة بجوار النيل فهو يعشق هذا النهر فقد قضى فترة طويلة من عمره على سطح مياهه لاعبا لرياضة التجديف، أو متنزها في إحدى المراكب الليلية.

حدق محمد في الماء لفترة طويلة وتذكر قصة كوبرى الزمالك وكيف تم تدمير هذا الكوبري الأثري واختفت قطعه بفعل فاعل كما يحدث دائما في مصر والنتيجة لا شيء لن تصل إلى الفاعل أبدا طالما الحكومة لا تريد أما لو اختفى مسمار ما وأردت الحكومة كشف الفاعل ما توانت لحظة.

تذكر يوم أزيل الكوبري عن بكرة ابيه ومد على جانبي النهر كوبريين خشبيين معلقين أحدهما في منطقة العجوزة والأخر قرب منطقة الزمالك وكانا يعيقان حركة المراكب التي يتدربون عليها حتى أنهم كانوا يضطرون للعبور من أسفل الكوبري بطريقة صعبة جدا. لم تكن هذه هي

المشكلة الوحيدة التي ألمت بهم نتيجة الكوبري ولكن الأكثر إثارة ما كان يقوم به هذا الكوبري من كشف للجرائم.

يتذكر محمد كم من جثة أوقفها الكوبري أسفل منه حتى اخرجها الأهالي أو أخرجتها الشرطة ولعل أكثرها تأثيرا فيه هي هذه العروسة التي عثروا عليها بفستان الفرح بل والميك أب كامل كأنها تستعد للزفاف في هذه الليلة، شغل باله في ذاك الوقت ماذا حدث؟ لماذا انتحرت؟ بل لماذا قتلت؟ فالمنتحرة لا تكون بكل هذه الأناقة والاستعداد لبدء حياة جديدة وأخذ ينسج في خياله عددا من القصص عن مصرع هذه الفتاة ما بين تخلص أهلها منها لعدم موافقتهم على الزواج أو نتيجة حادث أو أو..... كلها مسببات والنهاية واحدة جثة ملقاة أسفل كوبري خشبي.

نادته وفاء فاستفاق فجأة وسألته: هنتعشى أيه يا حبيبي؟

حبيبي؛ كلمة لم يسمعها منها منذ فترة طويلة، كلمة تنعش أحاسيسه التي ماتت منذ زمن بعيد أحاسيسه التي استولت عليها منال منذ رأها مرة أخرى، هو لا يكره وفاء ولكنه يرفض واقعة الذي يعيشه يتمنى أن يعود إلى ماضية، يتمنى أن يتخلص من الأعباء التي أثقلت كاهلة يتمنى أن يعود طفلا يلهو ويلعب ويصرخ ويبكي ويضحك بصوت عال ولا يجد من حوله

يستنكفون فعله، أنه يريد أن يعود بل يريد أن يهرب إلى الماضي الذي يفتقده.

رد محمد على تساؤل وفاء: اللي أنت نفسك فيه يا حبيبتي، ولأول مرة منذ زمن يجد وفاء جميلة فكلمة حبيبتي جعلت وجهها مشرقا كأنها عروسا من الجنة، كلمة واحدة قادرة أن تجعل من حولك سعيدا، بل وتجعلك أنت سعيدا فلما تبخل بها؟ أعاد الكلمة مرة أخرى وأضاف أنا ملكك اليوم حبيبتي اختاري ما شئت وسأجده جميلا مثلك.

هنا عادت وفاء إلى طبيعتها قائلة: مالك يا راجل أنت، هو أنت فاكر نفسك قاعد معاها ولا مع واحدة تانية فوق كده أنا وفاء مراتك الكلام الحلو ده بتقوله لمين فووووق.

الهروب إلى الماضي ٢٥

استدرك محمد حجم الفارق بينه وبين وفاء فهي كأي سيدة تتمنى من زوجها أن يقول لها كلام حب ومدح ولكن ما أن يسترسل فيه إلا وتظهر فورا الضرة أي ضرة حتى وإن كانت من وحي الخيال.

تناولا طعام العشاء وقررا أن يستكملا نزهتهما خلف النادي الأهلي بالجزيرة حيث تركا السيارة ونزلا للتمشية، قال لها محمد: أنت عارفة يا وفاء طول عمري وأنا مقضي وقتي هنا في الزمالك مكنتش أعرف أن في ناس تانية عايشة في مصر حياتي كلها توقفت عند حدوده وحدود مدرستي معرفتش أن الفرق بين أهل مصر هو كوبري تعدي من عليه من الزمالك قمة الغنى والرقي والشياكة إلى أبو العلا قمة المجدعة والمرجلة والدخل المحدود، في تجار أيوه في تجار لكنهم مش من سكان المنطقة، سكان المنطقة معروفين يمكن من قبل سكان الزمالك.

أنت عارفة يا وفاء الفرق بين الزمالك وبولاق أبو العلا هو الفرق بين الشعب المصري قبل الثورة البهية عام ١٩٥٢ ، فالزمالك هم الأقطاعين، وأهل بولاق هم أهل مصر، تقوم تيجي ثورة مش على البال ولا على الخاطر وتشيل أهل بولاق تحطهم في الزمالك وتشيل أهل الزمالك

وتحطهم في بولاق يبقى المعادلة دي تديك أيه؟ تديك شعب مشوه ليس له شكل محدد، شعب خليط بين الرقي والفقر، والتخلف والغنى، وهذا هو ما أفرزته الثورة الميمونة، ومتقوليش لي أن الشعب تملك وتوزيع الثروات ووو..... والكلام الفارغ ده، ترد وفاء: هو أنا قلت حاجة، هو أنت سايبني أتكلم، وبعدين يا حبيبي لولا الثورة دي مكنتش عرفتك ولا أتجوزتك كان زمان امي بتشتغل عند أمك وأنا عاوز تنام معايا مجانا. الحمد لله الثورة دي جت أنقذتنا منكم ومن أعمالكم.

أحنا مين يا ست أنت؟

أنتم الجماعة بتوع الأقطاع وسرقة قوت الشعب.

سرقة قوت الشعب، هو أحنا اللي سرقنا قوت الشعب، أمال الجماعة بتوع الثورة عملوا أيه؟ رجعوا قوت الشعب. لا طبعا بس بدل ما كان الحرامية ١٠ أصبحوا مليون حرامي ومصر متحملة. يا حبيتي لما مصر كان بيسرقها ١٠ كانت أجمل مدن العالم، كانت بلد الموضة، كانت أنضف وأرقى مدينة في الكون كله، وكانت الموضة بتتعرض فيها قبل أي مكان تاني، كانت مصر قبلة أوربا والعالم أجمع، دلوقتي بقينا فين وهي راحت فين؟ أنت هتغني لي يا حليمو ولا أيه؟ يستدرك محمد ما تقوله عن

أغنية عبد الحليم حافظ فيحتضنها ويقبلها ويعودا إلى سيارتهما وكأنه أول يوم زواج لهما.

يدير محمد أغنية أم كلثوم التي يعشقها عشق : أغدا ألقاك، وما أن بدأت الست في الغناء إلا وكانت حفلة منال بقيادة وفاء قد بأت في السيارة انتهت مع وصولهم للبيت واحتضان محمد لوفاء حضنا جعلها تتوقف عن الكلام وتنتظر ليلة من هذه ليلتي لأم كلثوم.

الهروب إلى الماضي ٢٦

يعود محمد ووفاء إلى منزلهما ممنيا أنفسهما بليلة من ليالي شهر العسل ليفاجئا أن أخر العنقود قد أصابته حرارة شديدة، وكعادة الزمان مع محمد لم يستمتع بليلته، اصطحب محمد وفاء وأخر العنقود إلى أقرب مشفى، وما أن دلفا من الباب طلبا للطوارئ إلا وبدأت حرب الاستنزاف من كل الطاقم الطبي حتى الطبيب نفسه كأنه كان يعد أنفاسه ليضيفها إلى فاتورة الحساب، صرخ محمد قائلا: الدولة بتقول اللي يجيلك الطوارئ عالجه وبعدين نتحاسب، رد عليه المحاسب، طب روح بقى عالج الواد عند الدولة ولا خلي الدولة بتاعتك دي تيجي تاخد الواد من هنا

يعني أيه الكلام ده

يعني يا هندسة مفيش واد بدون فلوس تجيب فلوس تاخد الواد

أيه البلطجة دي؟

أيوة بلطجة وورينا هتعمل ايه. أتصل بالشرطة ياحنفي وقول لهم إن في بلطجي بعتدي علينا في المستشفى.

بلطجي أيه يا حيوان أنت أنا مهندس قد الدنيا ولولا الظروف الزفت اللي أحنا فيها كان زمانك أنت وأهلك واقفين طابور على باب بيتنا عشان اسمح لكم بس بالوقوف قدامي مش السلام عليا حتى.

أنت مجنون يا جدع أنت ولا أيه أوع كده.

أيه ده أنت بتعمل أنت بتخبط دماغك في الحيطة ليه؟

مين اللي خبط دماغة مش أنت اللي خبطها لي.

أنا أيه يا جدع أنت أنت هتتبلى علي ولا أيه

أيوه هتبلى عليك ودلوقتي تيجي الدورية وتشوف هتعمل معاك أيه.

يدخل من الباب اثنين أمناء شرطة ويتهامسا مع موظف الحسابات ومع حنفي الذي كان رأسه يفيض بالدماء ثم يعودا إلى محمد قائلين: اتفضل يا حضرت أنت معنا وأنتم حصلونا

أتفضل معاكم على فين

على القسم يا حلو يا جميل، يعني هنوديك على فين على الهيلتون يعني.

يضطر محمد للذهاب معهما حتى لا يتطور الموضوع.

يضع الأمينان محمد في غرفة التحقيق ويذهبا وبعد أكثر من ساعة يأتي أمين أخر ويسألهما عن ما حدث فيأخذه أحدهما على جنب ويحدثه في أذنه ومن ثم يعود إلى محمد مرة ثانية ليقول له: أيه يا حلو عامل لي بلطجي، فاكر نفسك فان دام ولا شوازنجر.

فان دام ايه يا أمين أنا كنت رايح أعالج أبني وجم الجماعة دول قالوا لي لازم تدفع ٥٠٠٠ جنية تحت الحساب، قلت لهم الدولة بتقول عالج في الطوارئ على حساب الدولة، وعينك ما تشوف إلى النور مسكوني بستفه وكلام مالوش لازمة وبعدين الجدع ده اللي أسمه حنفي راح خابط دماغه في الحيط وجم زمايلك وتوشوشوا مع بعض وجابوني هنا.

توشوشوا أيه يا حضرت أنت كده بتزيد التهم بتاعتك

تهم أيه يا عم أنت أنا معملتش حاجة أنا عاوز محامي. أن عاوز الأستاذ عباس المحامي بتاعي.

تهمة جنحة ضرب ، وتهمة أنك أنت بتقول عليهم مرتشين.

يا عم أنا مقولتش حاجة أنا بقول لك بقول لحضرتك بقول لجانبك اللي حصل.

أنت بتتريأ علي ماشي يا حلو ليلة بيضا أنشاء الله.

يا عم ولا بيضا ولا سودة أنت عايز أيه ولا همه عايزين أيه.

همه جايبين تقرير طبي بيقول انه محتاج علاج أكثر من ٢١ يوم وده معناه جنحة يا حلو ولازم نحجزك لحد ما تتعرض على الضابط الصبح وبعدين النيابة وبعدين المحكمة وبعدين السجن. أيه يا عم دور الشويش عطية بتاعك ده.

أترأ يا حلو أترأ.

يوضع محمد في الحبس وهي أول مرة يرى الحبس مش حتى يدخل فيه.

مساء الخير يا حلو معاك سجاير. لا يا حلو مبدخنش.

أه أنت بتهزر معايا بقى. أقف عوج وأتكلم عدل يا جدع أنت.

واد يا حمو. نعم يا معلم. شوف الواد ده معاه أيه. معاه أيه يعني أيه؟

يعني هنقلبك يا حلو. يعني هنظبطك يا جميل.

أبعد أيدك يا جدع أنت ويغيب عن الوعي ليجد نفسه صباحا وقد جرد من كل ما معه.

ينادي الأمين من باب الحجز محمد صلاح السمنودي، أيوه أنا أنا بصوت عال. تعال الضابط عايزك.

يقف أمام الضابط وقد كست عيناه ملامح الحزن واليأس ليجد الضابط ينادي عليه: أزيك يا سمنودي، مين ؟ أنا أحمد يا سمنودي أخو حسام دفعتك أنا كنت أصغر منكم نسيتني ولا ايه، لا نسيتك أيه ولو نسيتك ده أنا لازم أفتكرك وخاصة دلوقتي.

يضحك أحمد ويقول له: بقى يا راجل تفتح دماغ التمرجي وتجيب له علاج ٢١ يوم

والله يا أحمد بيه ما جيت جنبه

بيه يا سمنودي أنا زمايل، متقلقش حالا بخلص لك المسائلة.

شويش منصور، تمام يا فندم، هات الأمين طه والأمين صفوت بسرعة، تمام يا فندم.

يدخل الأمينان، تمام يا فندم.

يقول أحمد: شوف يا ....ول أنت وهو حركات ال.....يكة بتاعتكم دي تعملوها على حد تاني غير الباش مهندس ده زميلي وصاحب أخويا.

حركات أيه يا أحمد بيه، ده فاتح دماغ الراجل. بلا دماغ بلا رجل خلص يا منك له الليلة دي ولا قسما عظما أفتح لكم ملفاتكم اللي عندي

وعلى أيه خلاص الموضوع منتهي وحنفي متنازل ويا دار مدخلك شر.وأدي محضر التنازل بتاع حنفي

أه يا وسخ منك له كنتم عايزين تنفوخوا الراجل.

يضحك الأمينان وأحمد ومن ثم يقول أحمد : حاجتك أهيه يا عم محمد أحسن تقول على المحبوسين بتعونا حرامية ولا حاجة، لا طبعا حرامية أيه ده أنا اللي حرامي.

بس أنا كنت عاوز أسألك سؤال. أتفضل. هو لو أنت مكنتش موجود هنا كان هيجرالي أيه؟

أبدا أما العيال دي كانوا هيخدوا منك فلوس ويقسموها مع حنفي أو لو مرضتش كان زمانك مشرف في النيابة.

تمام يعني اللي ملوش ضهر فيكي يا مصر بيضرب على بطنة. تمام هي دي مصر يا ريس حاجتين ينفعوك أما فلوسك أو ضهرك. وصباح الخير.

الهروب إلى الماضي ٢٧

يعـود محمد إلى المشـفى ليصـطحب عفـاف وولـده وهنـاك يقابـل مـدير المستشـفى الـذي يعتـذر منـه ويصـر على عـدم تحصـيل قيمـة إقامـة الولـد تحية منه لأحمد بيه، ويصر محمد على أن يدفع حتى لا يتحمل جميل فوق قدرته فيخفض له المدير ٩٠% من المبلغ ويدفعه محمد وينصرف وهو في حالـة من اليـأس والكراهيـة لكل ما هـو حولـة، لقـد اكتشـف أنـه أضـاع عمـره هبـاء في دراسـة الهندسـة ودراسـة الماجسـتير وإعـداد المشـروعات فيكفيه وظيفة صغيرة في أي مكان فيه تعاملات مادية ليتربح منه ويصبح مليونيرا بل يصبح من أصحاب العقارات وأيضا من أصحاب الحظوة.

يترك محمد عفاف عند باب البيت وينطلق لا يعرف أين يذهب فهو مشتت لا يريد الذهاب إلى العمل فقد يحتك بأحدهم ويتطور الأمر بلا أي مبرر.

يجد محمد نفسه وقد اقترب من بوابات الإسكندرية فيقرر أن يكمل طريقة إلى هناك ليطلع على مشروع العلمين وعله ينال قسط من الراحة ينسى فيه معاناة الأيام الماضية.

يقطع محمد الطريق إلى من القاهرة إلى الإسكندرية ما بين أغاني أم كلثوم وعبد الحليم ومرت ساعتين كأنهما لحظات ليجد نفسه قد تجاوز بوابات

الإسكندرية ومتجها بلا وعي إلى منطقة ميامي تلك المنطقة التي شهدت شقاوة الشباب حينما كان يدرس في الجامعة وكان يهرب من زخم الدراسة ومشكلات الحياة مع أصحابه : خالد وعامر ووائل وإيهاب وماجد وعباس وحمادة وحسام ووو..... حيث يتجمعون في منزل أحدهم ليعيشوا براءتهم التي اغتيلت بفعل الزمن واحتياجات الحياة. هنا كانوا يجلسون ليشربوا الشيشة وهنا كانوا يأكلون الحلوى الاسكندرانية الهريسة وهنا وهنا... ويقف اما بيت من بيوتهم مقابل لبئر مسعود ليتذكر يوم اجتمعوا في شتاء أحد أعوام الدراسة وكان الجو مشمسا في هذا اليوم وخلال وقوفهم في البلكونة المطلة على الشاطئ رأوا بنت بمفردها تقف بين الكبائن أحس محمد أن البنت في ورطة بينما هم يرونها فريسة سهلة المنال- رغم أن جميعهم تقريبا تجاربهم النسائية لا تتجاوز المحادثات التليفونية، يقرر محمد أن يهبط من الدور العاشر ليرها عن قرب، أقترب منها وتصاعدت دقات قلبه وكأنه يقترب منها الأن، سألها: خير في مشكلة، التفتت له، فإذا بأجمل وجه ملائكي طفولي يراه في حياته بوجه يشع نور كاد أن يحرق عينيه اللتان أخذتا تتفحصانها من كل تفاصيلها، تجاوبه: لا مفيش مشكلة، يقدم نفسه لها: محمد السمنودي، هندسة القاهرة، أماني راغب أداب إنجليزي الإسكندرية، يسألها عن

سبب تواجدها بمفردها هنا في هذا الوقت الذي تخلوا فيه منطقة الكبائن من الناس، فتجيبه: هنا أتذكر خطيبي، يرد مسرعا: هل انفصلتم عن قريب، ويقول في نفسه من هذا الغبي الذي يترك هذا الجمال.

ترد: لا ولكنه توفي رحمه الله.

رد محمد الله يرحمه.

تكمل حديثها، طبعا أنت واضح أنك مش إسكندراني علشان كده متعرفش إن هنا في بير مسعود وإنه في كثير من الناس وخاصة المخطوبين أو الأصحاب بيجوا هنا ويرموا فلوس في البير ويتمنوا أمنية، ويوم كنت هنا أنا وزاهر وكان عايز يهديني هدية، عارف كان عايز يهديني أيه؟

يرد محمد : طبعا لأ.

تستكمل حديثها، كان عايز يجيب لي من البئر قطعة نقود من اللي ناس بترميها علشان تكون ذكرى لينا ولما نزل البير مطلعش تاني ولحد دلوقتي محدش يعرف هو جرى له أيه لكن على الأغلب إنه غرق حسب كلام الغطاسين وملقوش جثته.

ترتسم ملامح الحزن على وجه محمد ليقول لها: أكيد كنتم بتحبوا بعض أوي.

مش قادره أوصف لك بس كفاية إنك تعرف إننا خلقنا لبعض أحنا أصلا ولاد خالة وأتولدنا في أسبوع واحد ومن يوم ما أتولدنا وأحنا مكتوبين لبعض وكل ما السنين كانت بتمر علينا كنا بنرتبط ببعض أكثر وأكثر ولما وصلنا للإعدادية اعترفت له بحبي لأجده يقول لي لو أنت بتحبيني يبقى أنا بعشقك عشق، وكملنا دراستنا منتظرين نخلص الجامعة علشان نتجوز خاصة أن الأمور المادية مش مشكلتنا ولكن في أولى جامعة قبل سنتين حصل اللي قلت لك عليه ولحد دلوقت وأنا كل يومين أو ثلاثة أجي هنا وأفتكر حبنا وأشوف البير يمكن يرجع.

تترقق عيون محمد بالدموع لتبدأ هي أيضا في البكاء وفجأة يأتي أصدقاؤه ليحولوا هذه اللحظة الحزينة إلى مهزلة تهريجية كعادتهم في هذه الرحلات ليستأذن منها ويصطحبهم بعيدا عنها تاركها تبحر في حزنها بحثا عن حبيب لن تجده أبدا ولو ملئت البئر بدموعها.

الهروب إلى الماضي ٢٨

لم تكن ذكريات أماني راغب فقط هي ذكريات الإسكندرية فهناك عاش طفولته التي حرم منها وهو لا يعرف السبب فقط كان قربه من والده واحساسه المبكر برجولته أحد أهم الدوافع نحو عدم الانغماس في مجتمع الطفولة والبراءة والتي كان يرها أبوه شقاوة تستوجب العقاب فكان ينأى بنفسه عن مثل هذه العبثيات حتى يظل في أعين أبيه رجلا كما كان.

واستكمل محمد وأصدقاءه رحلتهم وهناك كان شراء تموين للبيت فاشتروا كرتون من البيض كان مصيره القذف من النوافذ على بعضهم البعض ولعله طال جيرانهم في العمارة المقابلة والذين تعجبوا كيف لهؤلاء الشباب اليافعين القيام بحركات أقل ما توصف بأنها طفولية، وكلما تعمق في بئر ذكرياته زاد بعده عن واقعه وتعلقه بماض لن يعود ويرتجل محمد من سيارته ليقف على الشاطئ هنا كانت أول وأخر خناقة في هذا البلد حين أمسك بقشر ترمس كان في يده وألقاه على إحدى العابرات للطريق ولكنها لم تكن بمفردها كانت مع عائلتها فما كان من أحد إخوانها إلا التشاجر معه وهنا أنبرى صديقه خالد لتتحول المشاجرة منه وهو

سببها إلى أطراف أخرى لم تكن لهم يدا فيها وهو يقف بعيدا يضحك من كل قلبه حتى تساقطت الدموع من عينيه.

يمسح محمد دموع ذكرياته ويستقل الترام لا يعرف إلى اين فقط هو يذهب إلى مجهول بل يهرب إلى مجهول يبحث عنه ولكنه لم يجده يبحث عنه في منال في الإسكندرية في شوارع الزمالك ولكن هذا المجهول لا يعود فهو ماض ولى وأدبر فيستقل سيارته متجها إلى العلمين ليتفقد المشروع واستكمل باقي يومه هناك حيث شاهد العمال وهم يصنعون تاريخا جديدا لمنطقة سوف تزدحم قريبا بأغنياء مصر دون فقرأها حتى أهل الطبقة المتوسطة لم يعد لهم مكانا في خريطة مصر فعادوا يتمنون أن يكونوا فقراء أفضل لهم من مكانة اجتماعية مزيفة يغلفها باق من ماض كانوا هم المسيطرين على خريطة المجتمع من ناحية البناء والتجارة وكل شيء.

عاد محمد إلى القاهرة عازما على ألا يخوض غمار الماضي مرة أخرى.

الهروب إلى الماضي ٢٩

عاد محمد إلى القاهرة ليجد الحياة تسير لم تتوقف وكأنهم جميعا قد تعودوا على غيابه حتى وفاء لم تكلف نفسها سؤاله عن سبب تغيبه خلال هذا اليوم ولكنها ذهبت إلى المطبخ لتجهز له طعام العشاء.

وضعت وفاء الأطباق أمامه وانصرفت إلى الداخل لتجلس مع أطفالها ليدق جرس هاتفه ليجد منال على الطرف الأخر لم يعرف ماذا يفعل وكيف يتصرف ولكن بكاءها الشديد جعله ينسحب من صالة الجلوس إلى غرفته ليحاول معرفة ما حدث لها لتخبره أن زوجها قد طلقها وهو السبب فقد وجد اسمه مسجلا في هاتفها: محمد حبيب قلبي، امتزجت مشاعر الفرح مع مشاعر الحزن لم يعرف ماذا يقول لها سوى: أنا جاي لك حالا، حاولت أن تثنيه عن الذهاب لها فهو قد تخيل أنها تحبه فعلا وهي كانت تريده أن يذهب معها لزوجها ليوضح له أنهم أصدقاء منذ زمن طويل وأن هذا المسمى دليل تقدير له وليس دليل حب بمعنى الحب، وصل محمد إلى منزل منال وهو يمني نفسه بمستقبل يجمعه بحبيبة عمره بمنال أيقونة صبره على متاعب الحياة، وحين يراها تتسارع دقات قلبه فقد قرر أن يعيد مصارحتها بحبه ولكنها بادرته قائلة: محمد أنا أسفه لو

فهمتني غلط أنت حبيب قلبي وأخويا أنت لازم تعرف إن زمان راح خلاص وأن مشاعرنا دي كانت مشاعر مراهقة وللأسف هذه المشاعر انتهت من زمان

سألها محمد: مش فاهم، قالت له: يعني يا محمد أنت دلوقتي تروح لجوزي وتشرح له أن مفيش أي حاجة بينا وأن كل اللي يجمعنا صداقة الماضي فقط.

صدمة تلقاها محمد وكأنها تعلن له خبر وفاته جرى محمد مسرعا وهي تنادي عليه جرى محمد وهو لا يعرف أين يذهب ففي كل مكان يذهب له يتعثر في ماضيه يتعثر في حياة لم يمن نفسه أن يعيشها ولكنه عاشها يتعثر في حقبة التسعينات من القرن الماضي حين بدأ حياته من جديد بعد تخرجه من الجامعة وحماسة للخروج من عباءة ماضيه.

في فترة التسعينات التي شهدت فيها مصر كل المتناقضات شهدت الإخوان وشهدت الماركسيين وشهدت الملحدين وشهدت الإرهابين وشهدت زواجه من وفاء وشهدت وفاة والديه وهجرة أخيه، ما هذا الكم من الحزن والكآبة التي مثلتها له هذه الحقبة كيف تحمل كل هذه الأحزان كيف لم يصاب بالجنون كيف ظل يجاهد ذاته الرافضة لواقعة.

أنـزوى محمد على مقعـد في قهـوة شـعبية في حي فقير وسـأل القهـوجي أن يحضـر لـه قطعـة مـن الحشـيش ويضـعها لـه على الشيشـة فهـو يريـد أن يغيب عـن الـوعي وكلما سحب نفس من لي الشيشـة أحس أنه يغـوص في أعماق ذاته بل أحس أنه ينكمش حتى خيل له أنه يتلاشى ليصبح لا شيء ليصـبح هـو نفسـه ماضـيه يـزداد شـرهه لشـرب الشيشـة حتى القهـوجي لاحـظ ذلـك وقـال لـه: بالراحـة يـا باشـا كـده تتعـب، وأنـت مـال أمك حـط حجر كمان، يا باشـا، بلا باشـا ولا زفت حط يا له حجر، ويستمر محمد في شـرب الشيشـة وفجـأة يأتيـه أحسـاس بحـر شـديد فيبـدأ بنـزع ملابسـه تدريجيا حتى يظل بالبنطال فقط ويسقط البنطال ويسقط محمد ، يسقط في بحر من الذكريات لا شطأن له.

الهروب إلى الماضي ٣٠

دخل محمد في غيبوبة طويلة عاش خلالها في ظلام الماضي وظلام الحاضر وظلام المستقبل بدأت غيبوبته مع سقوط نظام أقل ما يوصف به بالنظام المتحجر نظام ظل جاثما على صدور المصرين لثلاثين عاما لم تتغير فيها مصر بل تغير فيها شعب مصر.

لقد كانت فترة حكم مبارك من أطول الفترات التي مرت على مصر وحين ترتبط بذكريات محمد تجدها لا تمثل شيء كأنها لم تأت أصلا بل ربما كانت فترة حكم السادات على قصرها مليئة بأحداث وحراك سياسي أكثر منه اجتماعي وحين بدأ الحراك الاجتماعي اغتيل الرئيس.

إن محمد واحدا من ضحايا استمرار الحكام في مناصبهم لفترات طويلة وأيضا تألبهم من قبل القلة المستبدة الماصة لدم ومقدرات الشعب.

وجاء مرسي ليحكم مصر بعد أحداث غابت عن محمد ولم يعرفها ولم يشاهدها، لم يشاهد أبناء مصر يحرقونها ويسرقونها ويحطمون كل شيء، لم يشاهد أبناء مصر وهم ينقلون للعالم الوجه السيء لحضارة كانوا يتفاخرون هم بها حضارة ٧٠٠٠ عام سقطت بفعل الدولار وعبيده سقطت بفعل من خانوا وطنهم وباعوه بثمن بخس سقطت بفعل قناة

الخنزيرة وبفعل حركة ٦ أكتوبر والمفوهيين التافهيين ومن على شاكلتهم ممن استفادوا من أعداء مصر، سقطت لأن نظام مبارك أسقط معه كل القيم التي كانت تحيا بها مصر، ولكن مصر وأن ألم بها مرض فالله حافظها.

وسقط الرئيس هتف الشعب تحيا مصر، فتح محمد عينيه ليسأل : هو في أيه؟ كان الرد سقط الرئيس فكان كل تخيله أن من سقط هو مبارك وكانت فرحة وفاء وأولادها بسقوط الرئيس ربما تفوق فرحتهم بعودة محمد من غيبوبته فعودته لم تعد فارقة معهم فهو حتى وإن عاد سيظل حبيس ماضيه هاربا من حاضره كارها لمستقبلة، فهم لم يجدوه أبدا عندما كانوا في حاجة إليه، فلتعد إلى غيبوبتك يا محمد وإلى ماضيك الذي تقوقعت فيه عد إلى منال وإلى أبويك وإلى حسن والزمالك عد إلى طفولتك التي لم تعيشها عد إلى كل ما كنت تتمناه فهذا الحاضر ليس لك والمستقبل بدونك أو معك لن يعد فارقا فوجودك لم يعد له معنى لدى أحد فهم في الحاضر وأنت في الماضي.

السيرة الذاتية للكاتب :

د.شريف الأتربى

خبير تعليم إلكتروني

مسؤول تفعيل أنظمة التعلم الإلكتروني لدى شركة تطوير لتقنيات التعليم بالمملكة العربية السعودية.

- دكتوراه في المكتبات والمعلومات جامعة حلوان عام ٢٠١٥م.
- ماجستير مكتبات ومعلومات جامعة المنوفية ٢٠١١م
- ليسانس آداب وثائق ومكتبات شعبة مكتبات عام ١٩٨٨م.

الخبرات العملية:

- معلم خبير ومدرس مواد البحث ومصادر المعلومات / الاجتماعيات بمدارس الرياض للبنين والبنات
- مدرب معتمد لدى شركة ميكروسوفت.
- مدرب برامج ICT Information & Communication Technology.

- مدرب برامج إدارة التعلم الإلكترونيLMS ..
- مدرب دمج التقنيات في التعليم

الدورات والحلقات الدراسية:

- دورات في الإدارة الصفية
- دورات دمج التقنية في التعليم
- دورة في المواطنة الرقمية
- دورة القيادة الذاتية.

صدرله عدة مؤلفات منها:

- كتاب التعليم الإلكتروني والخدمات المعلوماتية
- كتاب التعلم بالتخيل : استراتيجية التعليم الإلكتروني
- مؤلف مشارك في كتاب (البحث والاتصال)
- المجموعة القصصية: من خلف ستائر الحياة
- إصدار كتيب فهد في قلوبنا (بمناسبة مرور٢٥ عام على تولي المغفور له – بإذن الله – الملك فهد بن عبد العزيز مقاليد الحكم).

التواصل: EMAIL: sherifelatrbi١٩٦٧@yahoo.com

جميع حقوق النشر محفوظة. ولا يحق لأي شخص
أو مؤسسه أو جهة إعاده إصدار هذا الكتاب. أو جزء منه .
أو نقله بأي شكل من الأشكال او تدواله الكترونيا نسخا
او تخزينا دون إذن خطي من الدار